

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عمار ثليجي الأغواط
كلية العلوم الاجتماعية
قسم الفلسفة



مذكرة بعنوان:

الايديولوجيا والعلوم الانسانية عند محمد وقيدى

مذكرة لنيل شهادة الماستر الأكاديمي في الفلسفة
تخصص فلسفة عربية وإسلامية

تحت إشراف:

* الدكتورة يمينة عبيد

إعداد الطالبة:

- فاطمة الزهراء شهرة

السنة الجامعية : 2021/2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

لا يسعني بعد اتمام هذه المذكرة، الا ان أحمد الله على عظيم
نعمته وحسن توفيقه، فله الحمد والشكر وهو المستعان
والموفق وحده

اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد

كما اتقدم بأسمى معاني الشكر والتقدير الى من أعانتي
بتوجيهاتها وارشاداتها أستاذتي المشرفة (عبيد يمينة)، التي
تشرفت وسعدت بالعمل تحت اشرافها فلها أسمى عبارات
التقدير والاحترام والعرفان كما لا أنسى شكر
كل الأساتذة الكرام وبأخص

(الدكتور محمد تونسي- والدكتور لخضر قويدري)

فاطمة الزهراء

للهفدية

أهدي هذا العمل المتواضع
الى التي رفع الله مقامها وجعل الجنة
تحت اقدمها من ربتي وأنارت دربي وأعانتني بالصلوات
من والدعوات وعلمتني كلماتي الأولى
بهجة الروح وبهجة الحياة
وأغلى ما في الوجود أُمي الحبيبة والحنونة.
أبي الكريم رحمه الله وجعل فسيحه الجنة
الى من أحمل لهم في قلبي أرقى وأنبل الأحاسيس
الى جميع العائلة والأصدقاء الذي وسعهم قلبي
ولم يسعهم قلبي

فاطمة الزهراء



فهرس المحتويات



الصفحة	العنوان
	شكر
	اهداء
1	مقدمة
الفصل الأول	
في مفهوم الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية	
5	المبحث الأول : ماهية الايديولوجيا
5	1- مفهوم الايديولوجيا
7	2- تعريفات أخرى للأيديولوجيا
9	3- تطور مفهوم الأيديولوجيا
11	4- المفاهيم الأساسية للأيديولوجيا
14	5- أبعاد الأيديولوجيا
19	المبحث الثاني: ماهية العلوم الانسانية
19	1- مفهوم العلوم الانسانية
20	2- مشكلة المصطلح للعلوم الانسانية
21	3- تاريخ العلوم الإنسانية
22	4- نشأة العلوم الإنسانية وتطورها
25	5- فروع العلوم الإنسانية
32	6- مواقف بعض الفلاسفة من الأيديولوجيا
الفصل الثاني	
الفكر الاستمولوجي عند محمد وقيدى	
35	المبحث الثاني: التعريف بمحمد وقيدى
35	1-حياته
36	2-مؤلفاته

38	2-وفاته
39	المبحث الثاني : الجذور والمنطلقات الفكرية لمحمد وقيدي
39	1- محمد وقيدي وعلم الاجتماع
41	2- تأثر محمد وقيدي بغاستون باشلار
45	3- القطيعة الابستمولوجية عند غاستون باشلار
47	4- محمد وقيدي وباشلار
الفصل الثالث علاقة الأيديولوجيا بالعلوم الإنسانية من وجهة نظر محمد وقيدي	
51	المبحث الأول: العلوم الإنسانية ومنهجها عند محمد وقيدي
51	1- العلوم الإنسانية عند محمد وقيدي
52	2- بعض اشكالات النشأة في تاريخ العلوم الانسانية (الفصل 2)
57	المبحث الثاني: الأيديولوجية كعائق في تقدم العلوم الإنسانية
57	1- العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية عند محمد وقيدي
59	2- عائق الأيديولوجيا للعلوم الإنسانية من وجهة نظر محمد وقيدي
60	3- العلوم الإنسانية بين الاعتراض على قيامها والاعتراف بصعوباتها
	الخاتمة
	قائمة المراجع



مقدمة



عرف العلم تطورا كبيرا عبر مر العصور سواء على مستوى المنهج أو مستوى المضمون المعرفي، وقد شهد القرن العشرين ثورة حقيقية في شتى العلوم خاصة في بنيتها الاستمولوجية حيث برزت العلوم الإنسانية التي تهتم بدراسة الإنسان في ابعاده الثلاثة البعد التاريخي والنفسي والاجتماعي، العلوم الإنسانية التي تُعرّف العلوم الإنسانية هي أنها تلك العلوم التي تُعنى بوصف ودراسة وتحليل وتوثيق التجربة الإنسانية من جميع جوانبها، بما في ذلك العلاقات بين الأفراد وأساليب التعبير والتواصل، وتُعد العلوم الإنسانية مظلة واسعة يمتد ألقها بمجموعة من العلوم الأخرى التي تتطوي تحتها، كما تفتح العلوم الإنسانية نافذة التواصل بين الماضي والحاضر، فتدرس التاريخ الإنساني والعلاقات التي كانت قائمة بين الإنسان والبيئة من حوله، وبين ما يعيشه الإنسان المعاصر في بيئته الحديثة من وسائل تعبير وتواصل مختلفة تبعاً لوجود العديد من التغييرات المنطلقة من محيطه الآخذ بالتطور سريعاً .

وبالموازاة مع هذا التطور تولدت العديد من المصطلحات المعرفية في شتى الفروع العلمية، ومن أكثر هذه المفاهيم تداولاً واستخداماً مصطلح الأيديولوجيا الذي نقصد به النسق الكلي للأفكار والمعتقدات والاتجاهات العامة الكامنة وراء أنماط سلوكية معينة، وأصبح للأيديولوجيا تأثيراً كبيراً على حياة الإنسانية الاجتماعية والسياسية وحتى المعرفية.

وللحديث عن الأيديولوجيا وعلاقتها بالعلوم وخاصة العلوم الإنسانية منها يحيلنا الى أسماء قليلة، من بينها المفكر والكاتب المغربي محمد وقيدى الذي عرب المصطلح تاثيراً بغاستون باشلار من خلال اهتمامه بالأيديولوجيا والعلوم الإنسانية والعلاقة التي تربطها وعلى ضوء ذلك يمكن تحديد إشكالية البحث، بالشكل التالي: ما العلاقة بين الأيديولوجية

والعلوم الإنسانية في نظر محمد وقيدى؟

وفي سياق الإشكالية نطرح التساؤلات الفرعية التالية:

1/ ما مفهوم للأيديولوجيا والعلوم الإنسانية ؟ وكيف نشأت وتطورت؟

2/ ماهي المنطلقات والجذور الفكرية لمحمد وقيدي؟

2/ ما علاقة الأيديولوجيا بالعلوم الإنسانية من وجهة نظر محمد وقيدي؟

ولمعالجة الإشكالية وضعنا خطة تتكون من مقدمة وثلاث فصول كل فصل يتناول جانباً معيناً من موضوع دراستنا، فكان الفصل الأول بعنوان بمفهوم الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية حيث حاولنا الوقوف على مفهوم الأيديولوجيا وتاريخها وتطورها وأبعادها ثم عرضنا إلى العلوم الإنسانية من خلال المفهوم والفروع وظروف نشأتها .

أما الفصل الثاني الموسوم بالفكر الاستعماري عند محمد وقيدي فتفرع الفصل إلى بحثين المبحث الأول نتعرف على حياة الوقيدي ومؤلفاته أما المبحث الثاني فيتعلق بالجذور والخلفية الفكرية لمفكرنا محمد وقيدي والتي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالفيلسوف غاستون باشلار الذي سعينا إلى توضيح أفكاره خاصة فكرة القطيعة الاستعمارية والعوائق الاستعمارية.

بينما الفصل الثالث المعنون بتصور محمد وقيدي للعلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية حاولنا توضيح موقف محمد وقيدي من العلوم الإنسانية ومنهجها إلى جانب تأثير الأيديولوجيا على العلوم الإنسانية إلى جانب خاتمة للبحث التي كانت بمثابة خلاصة شاملة لموضوع بحثنا.

وتمكن أهمية بحثنا في أن لكل دراسة أكاديمية أهميتها التي تدفع الباحث إلى العمل عليها وتقديم التساؤلات في محاولة التوصل إلى نتائج تجيب على تساؤلاته، ويكون طريقه في ذلك الأدوات المختلفة للبحث العلمي ومناهجه مع استخدامها بطريقة علمية موضوعية ولعل أهمية دراستنا تكمن في الوقوف على معالم الأيديولوجية والعلوم الإنسانية عند محمد وقيدي وكيفية التأثير الكبير له بالعالم الفيلسوف غاستون باشلار ودراسته للمصطلحين وربط العلاقة بينهما ومساهمته في تطويرها في العالم العربي من خلال الكتابات حول الموضوع في مجموع المؤلفات والكتب.

ومن دوافعي اختياري لموضوع الدراسة هو الميل الشخصي للبحث في فلسفة العلوم والابستمولوجية عند العرب خاصة المغاربة كونهم من أكثر العرب اهتماما بهذا المجال، والغوص في أهم الشخصيات فيها التي كانت لها وزنها الكبير في الفكر المغرب العربي، ومحاولة التعرف على شخصية محمد وقيدي وتعريفه للأيدولوجية والعلوم الإنسانية الى جانب الدور الذي لعبه في تطويره من خلال الكتابات المتنوعة.

وأما عن الدافع الموضوعي فتتمثل في السعي للتوضيح بجهود وقيدي الأيدولوجية والعلوم الإنسانية من خلال إنشاء بحوث ودراسات تتحدث عنه واهتمامه بهذا المجال. كما كان موضوع قلة الدراسة في هذا المجال، العربية بصفة خاصة، حيث تفتقر المكتبة العربية إلى الدراسة الجادة في مجال اهتمام المغاربة بالايديولوجية والعلوم الانسانية خاصة الكاتب وقيدي الذي يعتبر شخصية تستحق الدراسة. وقابلية الموضوع للدراسة والبحث، هذا ما يسمح لنا بتطبيق مراحل البحث العلمي.

ليكون لنا مجموعة من أهداف الدراسة تتمثل في:

إن لكل دراسة هدف أو غرض يجعلها ذات قيمة علمية، والهدف من الدراسة يفهم عادة على أنه السبب الذي من أجله قام الباحث بإعداد هذه الدراسة والبحث العلمي هو الذي يسعى إلى تحقيق أهداف عامة غير شخصية ذات قيمة ودلالة علمية.

ونسعى من خلال هذه الدراسة الوصول إلى مجموعة من الأهداف التي يمكن إجمالها فيما يلي :

- 1- توضيح مفهوم كل من الايديولوجية والعلوم الإنسانية.
- 2- الوقوف على المنطلقات والخلفيات الفكرية لمحمد وقيدي وخاصة تأثره بأستون باشلار.
- 3- التعرف على علاقة الأيديولوجية بالعلوم الإنسانية من وجهة نظر محمد وقيدي

ولقد اعتمدنا في دراستنا على المنهج الوصفي التحليلي الذي يتناسب مع الموضوع من حيث الدراسة المقدمة والاشكالية المطروحة ومحاولة الوقوف على حيثيات الموضوع والاحاطة بكل جوانبه

ومن ابرز الدراسات السابقة دراسة متمثلة في مذكرة لنيل شهادة الماستر فلسفة تخصص فلسفة عربية وإسلامية بعنوان " جهود محمد وقيدى الإستمولوجية " من اعداد الطالبة جميلة عماري جامعة عمار ثليجي 2018-2019 وهذه المذكرة تختلف عن موضوع نتناول موضوع دراستنا الا أنها تعالج فكر محمد وقيدى من الناحية الاستمولوجية.

ومن الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث الذي هو كغيره من البحوث الأخرى لا يخلو من صعوبات وعوائق تتعرض سبيل الباحث ومن بين هذه الصعوبات نذكر ما يلي:

- قلة الخبرة والتجربة.
- قلة المراجع حول الموضوع الذي صعب علي التعجيل في البحث .
- صعوبة موضوع الدراسة خاصة انه يندرج ضمن حقل الاستمولوجيا وهو ميدان يتطلب العمق والدقة.



الفصل الأول

في مفهوم الأيديولوجيا

والعلوم الإنسانية



المبحث الأول : ماهية الايديولوجيا

1- مفهوم الايديولوجيا

الأيديولوجيا أو الأيديولوجية. باليونانية القديمة¹: ἰδέα إيديا، «فكرة»، و λόγος لغوس «علم، خطاب»؛ بالعربية: الأدلوجة، الفكروية، الفكرانية، العقيدة الفكرية تناولت تعريفات عديدة جانباً أو أكثر من جوانب هذا المصطلح، بوصفه مفهوماً حديثاً.

إلا أن التعريف الأكثر تكاملاً يحدد الأيديولوجيا بأنها "النسق الكلي للأفكار والمعتقدات والاتجاهات العامة الكامنة في أنماط سلوكية معينة. وهي تساعد على تفسير الأسس الأخلاقية للفعل الواقعي، وتعمل على توجيهه. وللنسق المقدرة على تبرير السلوك الشخصي، وإضفاء المشروعية على النظام القائم والدفاع عنه. فضلاً عن أن الأيديولوجيا أصبحت نسقاً قابلاً للتغير استجابة للتغيرات الراهنة والمتوقعة، سواء كانت على المستوى المحلي أو العالمي"

يُعد دي تراسي أول من وضع هذا المصطلح في عصر التنوير الفرنسي، في كتابه "عناصر الأيديولوجية". ويعني تراسي بالأيديولوجية علم الأفكار، أو العلم الذي يدرس مدى صحة أو خطأ الأفكار التي يحملها الناس. هذه الأفكار التي تُبنى منها النظريات والفرضيات التي تتلاءم مع العمليات العقلية لأعضاء المجتمع.

وقد انتشر استعمال هذا الاصطلاح بحيث أصبح لا يعني علم الأفكار فحسب، بل النظام الفكري والعاطفي الشامل الذي يُعبّر عن مواقف الأفراد من العالم والمجتمع والإنسان. وقد طُبّق هذا الاصطلاح بصورة خاصة على المواقف السياسية، التي هي أساس العمل السياسي وأساس تنفيذه وشرعيته. والأيديولوجية السياسية هي الأيديولوجيا التي يلتزم بها ويتقيد بها رجال السياسة والمفكرون إلى درجة كبيرة، بحيث تؤثر على حديثهم وسلوكهم السياسي، وتحدد إطار علاقاتهم السياسية بالفئات الاجتماعية المختلفة.²

¹ بعلبكي، منير، قاموس المورد، صدر عن دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. 1967، ص 192.

² السيد الحسيني، "مفاهيم علم الاجتماع"، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ط2، 1987. ص 253.

الأيديولوجيا السياسية التي تؤمن بها الفئات الاجتماعية المختلفة في المجتمع، قد تتضارب مع بعضها، أو تتسم بالأسلوب الإصلاحي أو الثوري، الذي يهدف إلى تغيير واقع المجتمع وظروفه، ولكن جميع الأيديولوجيات تكون متشابهة في شيء واحد، وهو أسلوبها العاطفي وطبيعتها المحركة لعقول الجماهير. ومن ثم، تعبّر الأيديولوجيا، بصورة عامة، عن أفكار يعجز العلم الموضوعي عن برهان حقيقتها وشرعيتها، لكن قوة هذه الأفكار تظهر من خلال نغمتها العاطفية وأسلوبها المحرك للجماهير، والذي يتناسب مع الحدث الاجتماعي الذي يمكن القيام به. أما المفهوم الماركسي للأيديولوجيا، فيُعبر عن شكل وطبيعة الأفكار التي تعكس مصالح الطبقة الحاكمة، التي تتناقض مع طموحات وأهداف الطبقة المحكومة خصوصاً في المجتمع الرأسمالي

وقد حدد البروفسور كارل منهايم (Karl Mannheim) [1893-1947] م [معنى الأيديولوجية في كتابه «الأيديولوجية والطوبائية» الذي نشره عام 1936 فيقول بأنها الأفكار المشوهة التي تطلقها الطبقة الحاكمة لتحافظ على النظام الاجتماعي الحالي، أو النظام الاجتماعي السابق، أو هي التعبير الفكري لجماعة من الجماعات، وهذا التعبير يساعدها على تحقيق أهدافها وطموحاتها¹

حيث تعرف الأيديولوجيا هي علم الأفكار وأصبحت تطلق الآن على علم الاجتماع السياسي تحديداً ومفهوم الإيديولوجيا مفهوم متعدد الاستخدامات والتعريفات، فمثلاً يعرفه قاموس علم الاجتماع بمفهوم محايد باعتباره نسقا من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية) تسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منطق يوجه ويبسط الاختيارات السياسية أو الاجتماعية للأفراد والجماعات وهي من منظور آخر نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية وتبررها في نفس الوقت.

1 عبد الله عبد الوهاب محمد الأنصاري: الأيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة، رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص (47) وما بعدها

وفي ترجمتها الى اللغة العربية يذهب العروي إلى أن " كلمة (أيديولوجيا) دخيلة على جميع اللغات الحية؛ فهي تعني لغوياً في أصلها الفرنسي: (علم الأفكار)، لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي؛ إذ استعارها الألمان وضمّنها معنى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسية فأصبحت دخيلة حتى في لغتها الأصلية"

وعلى الرغم من أن هذا المصطلح دُخِل على الثقافة العربية وبنيتها اللغوية إلا أن العروي وفرحان يحيى وغيرهما يرون أنه يمكن تعريب المصطلح بكلمة (أدلوجة) على وزن أفعولة، وتصريفه وفق قواعد اللغة العربية¹.

2- تعريفات أخرى للأيديولوجيا

أما ديفيد جيري، و جوليان جيري، فيقدمان عدداً من التعريفات الخاصة بمفهوم الأيديولوجيا على النحو التالي:

- الأيديولوجيا هي نسق من الأفكار يحدد السلوك السياسي والاجتماعي.
- لأيديولوجيا - بصورة أكثر تحديداً - هي أي نسق من الأفكار يبرر خضوع جماعة أو طبقة ما، لجماعة أو طبقة أخرى، مع إضفاء نوع من الشرعية على هذا الخضوع.
- الأيديولوجيا هي معرفة موسوعية شاملة، قادرة على تحطيم التحيز وذات قدرة على الاستخدام في عملية الإصلاح الاجتماعي².

ويلاحظ أن المعنى الأول والثاني بوصفهما أصبحا، في الواقع، محور الاهتمام الرئيسي لمفهوم الأيديولوجيا. فيما ذهب "أنتوني جينز" في تعريفه للأيديولوجيا أنها مجموعة من الأفكار والمعتقدات المشتركة، التي تعمل على تبرير مصالح الجماعات المهيمنة. وتوجد الأيديولوجيات في كافة المجتمعات، التي توجد بها نظم راسخة لعدم المساواة بين الجماعات.

1 عبد الله العروي: مفهوم الأيديولوجيا، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1983م، ص 42.

² محمد علي محمد، "أصول الاجتماع السياسي"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1980، ص 85.

ويرتبط مفهوم الأيديولوجيا ارتباطاً وثيقاً بمفهوم القوة؛ لأن النظم الأيديولوجية تعمل على إضفاء المشروعية على تباين القوة، التي تحوزها الجماعات الاجتماعية¹.

ولكن هناك من عرّف الأيديولوجيا بشكل حيادي، بوصفها نسقاً من المعتقدات والمفاهيم والأفكار الواقعية والمعيارية معاً. ويسعى هذا النسق في عمومته إلى تفسير الظواهر من خلال منظور يوجه ويبسط الاختيارات السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات. ويوضح هذا التعريف الدلالات الحيادية للأيديولوجيا، التي اكتسبها المفهوم من تعدد الأنساق الفكرية التي عملت على إظهار مدى التوازن بين الجانبين الواقعي والمعياري، بوصفهما يمثلان مقومات الأيديولوجيا.

وتتميز الأيديولوجيا بأنها غير ثابتة ثباتاً مطلقاً، وإنما تتمتع بخاصية الدينامية؛ لأنها تشهد عمليات نمو وتحول وربما اختفاء وظهور جديدة. ويحدث ذلك في ضوء الأوضاع والمواقف الاجتماعية المختلفة والمتغيرة. فكثيراً ما تتعرض المجتمعات لقلقل داخلية أو خارجية تظهر في شكل انحرافات معينة عن الأيديولوجيا السائدة، أو في شكل تغيرات مهمة في البنية الاجتماعية والاقتصادية، أو في شكل صراع بين القيم الخاصة والعامة والآراء والاتجاهات. كما قد تظهر هذه القلاقل نتيجة لحوادث طبيعية، أو ثورات، أو غزوات، أو غير ذلك. في مثل هذه الحالات، قد تدخل عناصر جديدة إلى النسق الأيديولوجي أو تلغي بعض عناصره، أو يتم تعديل بعضها لتتواءم مع الواقع الاجتماعي الجديد.

ويجعلنا هذا نؤمن بأن النسق الأيديولوجي ليس فكراً جامداً؛ ولكنه دينامي متطور. فعلى سبيل المثال، كان العالم ينقسم إلى معسكرين، هما الشرقي والغربي، ونتيجة لعمليات وسياسات الاستقطاب والحرب الباردة وتأثيراتها ظهرت أيديولوجيا "الحياد الإيجابي" و"عدم الانحياز". وكذلك نتيجة للصراع الدائم بين الأيديولوجيا الاشتراكية والرأسمالية، انهارت الأيديولوجيا الاشتراكية وتفردت الرأسمالية².

¹ عبد الهادي والي، "التنمية الاجتماعية (مدخل لدراسة المفاهيم الأساسية)"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1983، ص 189.

² كارل مانهايم، الأيديولوجيا البوتوبيا، مقدمة سيوسولوجية في المعرفة، تر: الدكتور محمد رجا، الديريني، شركة المكتبات الكويتية، 1970، ص 138.

وقد أوضح كارل مانهايم هذه الفكرة (أي أن الأيديولوجيا قابلة للتغيير والتعديل وفق ما يطرأ على المجتمع من أوضاع ومواقف تتطلب هذا التغيير) فيقول: "إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف يستطيع الإنسان أن يحيا ويستمر في حياته وتفكيره، في وقت أصبحت فيه الأيديولوجيا و اليوتوبيا تفرض نفسها على مسارات حياته؟ فقد اعتقد الإنسان منذ وقت طويل أن تفكيره هو جزء من وجوده الروحي، وأنه ليس حقيقة واقعية حسية؛ ولكن هذا الاعتقاد قد تغير حتى من داخل الإنسان نفسه. وقد كان التغيير الأيديولوجي يعني لدى الإنسان إعادة توجيهه للقيم التي يشتق منها السلوك. ولكن في العصر الحديث تعاظم الاعتقاد بأننا لا يمكن أن نعيش على وتيرة واحدة، أو على مبدأ فكري واحد.¹

3-تطور مفهوم الأيديولوجيا

الأفكار تشبه الكائن الحي من ناحية النشأة والنمو؛ فالفكرة لا تولد كبيرة وكاملة، ولكنها تمر بمراحل من حيث التولد والنمو، ثم التطور والرقى والكمال، ثم الانحدار والتلاشي، والأيديولوجيا ليست بدعاً في ذلك، فقد سبق أن ذكرنا أن تراسي أول من استخدم هذا التعبير، وقد عرّفه بأنه علم الأفكار، أو العلم الذي يدرس مدى صحة أو خطأ الأفكار التي يحملها الناس، هذه الأفكار التي تبنى منها النظريات والفرضيات التي تتلاءم مع العمليات العقلية لأعضاء المجتمع.

وانتشر استعمال هذا الاصطلاح بحيث أصبح لا يعني علم الأفكار فحسب، بل النظام الفكري والعاطفي الشامل الذي يعبر عن مواقف الأفراد حول العالم والمجتمع والإنسان. وقد طُبّق هذا الاصطلاح بصورة خاصة على الأفكار والعواطف والمواقف السياسية التي هي أساس العمل السياسي، وأساس تنفيذه وشرعيته.

وعندما دخل المصطلح إلى لغة الفلسفة والجدل السياسي، اتخذ معنى جديداً على يد ماركس، وأنجلز، وقد وصفها الأخير بـ (الوعي الزائف)، باعتبارها تشويهاً للفكر والحقيقة؛

¹ أنتوني جينز، "مقدمة نقدية في علم الاجتماع"، ترجمة أحمد زايد وآخرون، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2002، ص 122.

لأن الطبقة الحاكمة تحجب الوعي والرؤية الصحيحة عن الطبقة المنتجة، وتدّعي الحقيقة المطلقة؛ لتسويغ موقفها، وتثبيت شرعيتها.

وممن أشار إلى هذا التطور الدكتور اليحيى في مقاله «الأيديولوجيا المفهوم والدلالة» بقوله: المفكر الذي توسّع في معنى الأيديولوجيا حتى شمل دلالاته الحديثة هو لينين [1870-1924م]، وأضاف إلى هذا المصطلح معنى جديداً وأسماء: (الحزبية)، ليس بمعنى التحزّب أو التشييع، وإنما بالمفهوم السياسي المؤدلج، والذي يدلّ على الوعي الحزبي الفعلي.

أما في عصرنا الحديث فقد انحصرت وظيفة الأيديولوجيا بالتعمق في دراسة قضية التقدم والتخلف في مجتمع معين، وقد ترتبط بأي مذهب سياسي أو ديني، أو فلسفي أو اجتماعي، فلا يكاد حزب يخلو من الأيديولوجيا بما هي منهج فكري - فلسفي ودليل نظري، فالحزب الذي لا يمتلك أيديولوجية هو حزب انتهازي ظرفي¹.

ووقيدي يرى بأن الإيديولوجيا موجود طالما هنا إنتاج للمعرفة، لأن الإيديولوجيا هي ما يؤطر المعرفة ويوجهها، بل لأن المعرفة تنتج الأيديولوجيا، أو هي على الأقل شرط من الشروط المنتجة لها وذلك لأن الإيديولوجيا تخضع بدورها لتأثير المعرفة، لكن هذا التأثير لا يتخذ صورة العلاقة بشرط خارجي فالإيديولوجيات ليست تطورات جماعية ثابتة بل متطورة، والمعرفة شرط من الشروط التي تساهم في تكوين التصورات الإيديولوجية كما تساهم في تطويرها² فهو يحاول أن يكشف بان التصورات الإيديولوجية لا تمثل لنا بوصفها معرفة لأن ذلك يخالف طبيعة وجودها ودورها في الحياة المجتمعية، فليست هناك في تاريخ الأيديولوجيات من ظل منها على بنيتها رغم تطور المعارف، لأن البحث في الإيديولوجيا لا يمكن أن يتجاوز المعرفة بوصفها أحد مكوناتها من جهة، وبوصفها مظهراً من مظاهر التعبير عنها من جهة أخرى. والمعرفة في تطورها تساهم بذاتها وخاصة في مجالات الدراسة المتعلقة بالإنسان، في إنتاج التصورات الإيديولوجية وتشكلها في الوقت ذاته ولذلك فإنه

¹ الأيديولوجيا، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توفيق للنشر، الطبعة الثانية، 2006م، ص 40.

² محمد وقيدي، بناء النظرية الفلسفية (دراسات في الفلسفة العربية المعاصرة)، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت،

بالقدر الذي نتعرف فيه هذا التصور أو ذاك بوصفة إيديولوجيا تعبر عن فترة أو عن فئة ينبغي فهمها في ضوء إطارها الأيديولوجي.

لأن أساس المعرفة شروط أبستمولوجيا يظل الحقل المعرفي قائماً مادامت موجودة . أما المضمون الأيديولوجي فهو يخضع لشروط مجتمعية في أساسها.

4- المفاهيم الأساسية للأيديولوجيا

إن مصطلح الأيديولوجيا ليس مفهوماً يعبر عن واقع محسوس، وليس نابغاً من المسلّمات فيحدّد حدّاً مجرداً، وإنما هو مفهوم اجتماعي تاريخي، يحمل في ذاته آثاراً لتطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية وسياسية متعددة، على حدّ تعبير العروي.

وإن قراءة عابرة لهذه الكلمة -حسب وجهة نظره- تظهر ثلاثة مفاهيم أساسية تجسّد المفاهيم الكبرى للأيديولوجيا، وهي على النحو التالي:

أ- المفهوم السياسي

إن الأيديولوجيا السياسية يمكن النظر إليها من الجانب النفعي (البراغماتي)، باعتباره حاسماً في هذا المقام. فالأيديولوجيا بالنسبة إلى المتكلم تهدف إلى إقناع الناس واستمالتهم من أجل كسب أنصار له ومؤيدين، وذلك لتحقيق الغلبة في الميدان الاجتماعي.

ومن هذا المنطلق ترتكز الأيديولوجيا السياسية على عناصر اجتماعية أهمها: الطبقة أو الفئات الاجتماعية المنتمية إلى المجتمع، أو العالم على مستوى العقائد الكبرى ك: الإسلام، أو الشيوعية أو العولمة.¹

وقد تعتمد على أطر تقليدية ما قبل عصر الأيديولوجيا ك: العشيرة، والعرق، والنسب، أو على أشكال عصرية حديثة ك: الدولة والحزب، والقومية، أو منظمات دولية وإنسانية ك: الجمعيات المدنية ذات التوجه السياسي - الاجتماعي مثل: حقوق الإنسان، والناشطين السياسيين الممثلين لهيئات أو منظمات دولية.

¹ المصدر نفسه ، ص 186.

وقد نظر عبد الله العروي إلى الأيديولوجيا السياسية باعتبارها قناعاً في مجال المناظرة السياسية، تكوّن تفكيراً وهمياً تتضمن أحكاماً وتقارير حول المجتمع، وتعبّر عن مصلحة طبقة أو شريحة اجتماعية تنتمي إلى حزب أو أمة، وتهدف إلى تحقيق إنجازات أو خطة عمل مرسومة، وتقود إلى قيم نسبية من الناحية النظرية أو المنطلقات¹.

ويرى اليحيى في مقاله «مفاهيم الأيديولوجيا» أن مثل هذا الحوار بين المؤدلجين في ميدان المناظرة، يجسّد الممارسة السياسية على الصعيد العملي في أبرز تجلياته؛ لأنه يفصح عن الأفكار والآراء والتصورات، فضلاً عن الأهداف والنوايا والتطلعات والبرامج السياسية التي يريد كل طرف أن يوصلها إلى الجمهور المستمع عبر شبكة الإبلّاغ أو وسائل الإعلام.

وأما مضمون الخطاب الأيديولوجي . السياسي لدى الطرفين فهو يحتوي على نقيضه، ومن خلالها تفصح الأيديولوجيات عن مضمونها الجدالي؛ لأن الأيديولوجيات المتجادلة ليست على مستوى واحد من الطبيعة والتوجه، كما أنها ليست على مستوى واحد من حيث الواقع والتصور، فمنها: الطبقة ك: الماركسية، ومنها: غير الطبقة ك: القومية، والعقائد الدينية التي لا يمكن تحويلها إلى طبقة.

والتركيز على القوة الاقتصادية بوصفها معياراً أيديولوجياً في التنافس والجذب السياسي ليس دائماً هو الغالب؛ لأن الاقتصاد ليس هو الحاسم في هذا المجال؛ فقد يكون العامل الثقافي محور الجدل.

المهم أن مثل هذه المناظرات السياسية باعتبارها فعاليات مهمة قد تظهر الأطراف المؤدّجة على حقيقتها أمام المجتمع حتى وإن لجأت إلى الأفتنة أو البراهين المنطقية الصورية والمعطيات المادية الملموسة فقد تستند إلى معيار قانوني أو روحي.

وإن الجانب الزائف في الأيديولوجيا جعل التعريف الماركسي الأول يصفها بأنها وهمية، ولكن المفهوم الماركسي تطور إلى درجة أصبحت فيه الأيديولوجيا ذات فاعلية لا تقل أهمية عن فاعلية الشرط الاقتصادي.

¹ محمد سبيلا: الأيديولوجيا نحو نظرة تكاملية، الدار البيضاء، المركز الثقافي الغربي، الطبعة الأولى، 1992، ص 11.

ووهمية الأيديولوجيا لا تنفي أهميتها في الحركة التاريخية؛ ذلك أن الاستقلال النسبي عن البنية الاقتصادية يقدم في ضوء التحولات التاريخية.

ومثال ذلك: التغيرات التي حصلت في روسيا والصين كانت أيديولوجية أولاً، واقتصادية ثانياً، ووصول طبقة اجتماعية جديدة إلى الحكم لم يتم نتيجة للتغيرات الاقتصادية فقط، بل للتغير الأيديولوجي وتفاعل الدين مع السياسية أحياناً أقوى من تأثير تفاعل السياسة مع الاقتصاد، فلا وجود لأيديولوجيا محضة، ولا دولة علمانية مطلقة.

وعندما تنفصل الدولة عن الكنيسة، فإنها تتحد مع كنيسة أخرى لكي تدعم السلطة السياسية بالسلطة الدينية¹.

ب- المفهوم الكوني/ رؤية العالم.

المفهوم الكوني للأيديولوجيا يتمثل في النظرة التاريخية للعالم، بعيداً عن التعصب السياسي لحزب أو اتجاه، وهذا الارتقاء من الخاص إلى العام، ومن الجزئي إلى الكلي، ليس معناه الشمولي بالمفهوم الأيديولوجي الحزبي، وإنما بمفهوم الرؤية للعالم.

ومن هنا يتبين الفارق بين المفهوم السياسي والكوني للأيديولوجيا، بوصف الرؤية للعالم مجموعة من الطموحات والأحاسيس والأفكار التي تجمع بين أعضاء جماعة ما غالباً ما تنتمي إلى النخبة المثقفة، والتي تتجرد من أية نزعة حزبية أو نفعية، وتعترف بالأيديولوجيات الأخرى وما فيها من مزايا.

المهم أن الرؤية للعالم تتجاوز الرؤية الجزئية . الطبقية أو القومية من خلال منظور إنساني قيمي قصد إدراك سيرورة التاريخ وتحولاته.

فالفردي بإمكانه أن يتجاوز مصلحته داخل الجماعة، وينظر إلى ذاته وإلى أيديولوجيته بصفتها واحدة من الأيديولوجيات، ثم ينتقل إلى الأيديولوجيات كروية شمولية، وهذا يحتاج إلى أفراد بلغوا مستوى عالياً من الثقافة والموضوعية تؤهلهم لإصدار أحكام وتقييمات حول العالم؛ لإدراك دور من أدوار التاريخ كقصد يتحقق عبر الزمن، كأن يتصدى عالم أو فقيه أو مفكر لمنعطف تاريخي أو دراسة ظاهرة الاستعمار العالمي بحياد تام.

¹ عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 68.

وهذه النظرة لا تتحقق إلا عند العلماء والكتّاب الكبار، في حدود النسبية التاريخية بوصفها مرجعاً وتفكيراً، وفي مجال الندوات الثقافية والمؤتمرات العالمية التي تتناول قضايا كونية ك: الحرب والسلام، ومستقبل العالم¹.

ج- المفهوم المعرفي

تستعمل الأيديولوجيا في معرفة الظواهر الجزئية والكلية في مجال نظرية المعرفة، ونظرية الكائن التي تتضمن أحكاماً حول الحق والخير والجمال، وغايتها إظهار كينونة الإنسان المادية والمعنوية في إطار النظرية الجدلية.

وقد خرج د. اليحيى بنتيجة مفادها أن ثمة علاقة وثيقة ومتداخلة بين المفاهيم الثلاثة للأيديولوجيا؛ فالمفهوم السياسي للأيديولوجيا يتجسد حين تدخل مع الأيديولوجيات الأخرى في حوار أو جدل، ويظهر التعصب والدفاع لدى كل فرد ينتمي إلى حزب أو تيار. أما عندما يقف من الأيديولوجيات جميعها في المسافة نفسها، ويتأمل في موقعها، ويكشف عن نقائصها وعيوبها، ثم يبين مزاياها، تكون رؤيته كونية للعالم.

وحينما يلجأ المرء إلى الأيديولوجيا كرؤية للعالم يستطيع من خلالها معرفة ظاهرة آنية أو جزئية يكون قد نظر إليها نظرة كونية عبر قانون الجدل في مجال النظرية، وقد أصبحت أكثر مرونة بدعوى أن في وسعها إخراجنا من مأزق الطبقة والأحزاب الضيقة².

5- أبعاد الأيديولوجيا

يرى د. فرحان اليحيى في مقاله عن «الأيديولوجيا المفهوم والدلالة» أن الأيديولوجيا تبدو مسألة معقدة وصعبة على صعيد الواقع، لا يمكن معرفتها والكشف عن طبيعتها إلا بتحليلها من خلال آليات اشتغالها داخل تشكيلة اجتماعية معينة، فهي ليست معارف ولا شيئاً زائداً ينضاف إلى الواقع، بل لها أبعاد ومفاهيم وغايات.

1 ناصيف نصّار: الأيديولوجية على المحك - فصول جديدة في تحليل الأيديولوجية ونقدها، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م، ص 49.

² ديفيد هوكس، "الأيديولوجيا"، ترجمة إبراهيم فتحى، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص 92.

أ- **البعد الاجتماعي والتاريخي** : الأيديولوجية ظاهرة جماعية جماهيرية؛ فالأيديولوجيا تنشأ وتعمل في المجتمع، وهي على صلة وثيقة بالنزعات والرغبات والمصالح الجماعية وبالرموز والقيم والتطلعات التي تجعل الجماعات معنى حياتها التاريخي متعلقاً بها¹.

وباعتبار أن أيديولوجية ما -عند البعض- هي منظومة مفاهيم اجتماعية تعبر عن مصالح طبقية محددة، فيرى مؤسسو الشيوعية أن أفكار الطبقات السائدة هي «الأفكار السائدة في كل العصور

أو بعبارة أخرى: فإن الطبقة التي تشكل القوة المادية السائدة للمجتمع هي -أيضاً- قوته الروحية السائدة»².

إن الأفكار السائدة ليست أكثر من كونها التعبير الفكري عن العلاقات المادية السائدة. أو هي العلاقات المادية السائدة مدركة على هيئة أفكار.

وبالنتيجة فهي العلاقات التي تجعل من طبقتها طبقة سائدة، فهي إذن أفكار سيادتها. إن الأفراد الذين يكونون الطبقة السائدة واعون ويفكرون، فمن حيث إنهم يسيطرون كطبقة، ويحددون فترة تاريخية على امتدادها، فمن البدهي أن يسيطروا في كل الاتجاهات، وأن يسودوا، من جملة ما يسودون ككائنات مفكرة، كمنتجين للأفكار، وأن ينظموا إنتاج وتوزيع أفكار عصرهم، ومن ثمة فإن أفكارهم هي الأفكار السائدة في العصر»

ويتضمن تعريف الأيديولوجية بأنها منظومة مفاهيم اجتماعية تعبر عن مصالح طبقية محددة بُعدين: اجتماعياً، وطبقياً، وذلك من خلال العلاقة بين الأيديولوجية بما هي مجموعة مفاهيم اجتماعية، ومصالح طبقية بعينها، أي: بين البنى التحتية، والبنى العليا لمجتمع ما. ففي داخل مجتمع محدد تاريخياً تظهر أيديولوجيات لا أيديولوجية واحدة، نتيجة لانقسام المجتمع إلى طبقات، وبروز أيديولوجيات ملموسة ومحددة³.

¹ ديفيد هوكس، المرجع السابق، ص 125.

² دينكين ميتشيل، "معجم علم الاجتماع"، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، 1981.

³ محمد سبيلا: المرجع السابق، ص 85.

فإن البنية الأيديولوجية في تركيبة اجتماعية ما تتكون من سلسلة من الأيديولوجيات بينها أيديولوجية مهيمنة تعبر عن الطبقة أو الفئة السائدة، وعلاقتها الوهمية مع علاقاتها الحقيقية بشروط وجودها العيانية، وظروف وجود أعدائها الطبقيين.

وفي هذه الحالة تؤدي الأيديولوجيا الحاكمة وظيفة مزدوجة؛ إذ تعمل على تأمين مصالحها، وتحجب الحقيقة عن الطبقات الأخرى.

وتتبعي الإشارة إلى أن مفهوم الطبقة يشكل نقطة خلاف بين الأيديولوجيات، في حين ترى الماركسية أن الطبقة الاجتماعية تتوافر على بنيات داخلية خاصة بها، تعارض مذاهب فلسفية واجتماعية أخرى.

وفي هذا المقام، فإن الماركسية ترى في الطبقة الاجتماعية أنه يجمعها موقف قياساً على المجتمع كله.

أضف إلى ذلك أن العلاقة تكون بين الأيديولوجية والمجتمع. فالفكر الأيديولوجي اجتماعي بطبعه، يميل إلى تغليب موقف فئة أو طبقة على موقف الفرد، أي أنها لا تتجسد إلا في ممارستها ضد فئة معينة من البشر، ك: البورجوازية ضد العمال والفئات الفقيرة، والعنصرية ضد الأجناس البشرية الأخرى.

ومن هنا تبدو الأيديولوجيا ضرورية؛ إذ لا تستطيع أية جماعة أن تتطلق من مشروع إصلاحى أو تحديثي إذا لم تكن لديها أيديولوجيا تسترشد بها في تحقيق أهدافها.

فالأيديولوجيا بمعناها الاجتماعي هي: مجموعة أفكار وتصورات حول المجتمع، بها يعي الناس وضعهم، ويعبرون عن مصالحهم ومواقعهم في المجتمع¹.

والأيديولوجيات ليست على مستوى واحد من السلوك الاجتماعي، فبينما تؤمن الماركسية أن الأيديولوجيا تصدر عن الفعل الاجتماعي بوصفها انعكاساً معرفياً له، يعتقد التيار المعاصر أن الأيديولوجيا تمثل أساساً وليس انعكاساً للفعل الاجتماعي، استناداً إلى اعتقاد منها أن الفعل الاجتماعي ما هو إلا التجسيد المباشر للسلوك؛ لأن الفكر هو السلوك ولا شيء سواه.

1 ناصيف نصار: المرجع السابق، ص 56.

ب- البعد الفكري والعلمي

يرى الدكتور اليحيى أنه إذا كان غرض الأيديولوجيا -في الأصل- إدراك الواقع واستيعابه على أساس موضوعي، فإن العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم -بوصفهما وجهين مختلفين للواقع- على طرفي نقيض.

وقد تعرض ألتوسير للصلة بين العلمي والأيديولوجي، فيرى أن العلمي يختلف عن الأيديولوجي من منطلقين:

الأول: أن الأيديولوجيا تركز على الجانب العملي - الاجتماعي، وعلى التجربة الحية، فهي توفق بين الفرد ومجتمعه، وبهذا الفعل تطغى الممارسة على النظرية، بينما يطغى النظري في العلم على التطبيقي، ويمكن القول: إن الأيديولوجيا هي التجسيد الفعلي للعلاقات المتنوعة التي يقيمها الإنسان مع سائر الناس، وقد ينطوي هذا التكيف على حقائق أو على تزيف، وقد تكون مقولاته عقلانية أو غير عقلانية.

والمنطلق الثاني: الأيديولوجيا منظومة مفاهيم واعتقادات تجريدية تفصل بين الإنسان وواقعه المحسوس، فهي بهذا انعكاس غير واعٍ لعلاقات الناس بظروف حياتهم المعيشية، في حين أن العلم يبنّي على الوعي¹.

ومع ذلك فالأيديولوجيا لا تتأهض العلم؛ فهي تدرك مكانته، وكذا العلم لا ينفىها تمامًا ما دامت ترجع إليه، وتبني بعض الحقائق عليه.

أما من حيث الحقيقة، فالعلم لا يعرف أية حقيقة تتحول إلى يقين؛ لأنه مبني على الشك، كما أنه يستند على براهين علمية، على حين تقدم الأيديولوجيا تفسيرًا شاملاً للواقع له صفة اليقين وقد استنتج مما تقدم أن الأيديولوجيا ليست علمًا قائمًا بذاته، وليست نقيضًا للعلم، لكن العلم يدحضها ويكشف عيوبها، ومع ذلك لا ينفىها، فهي أمر موضوع.

¹ محمد تقي مصباح اليزدي: الأيديولوجية المقارنة، ترجمة: عبد المنعم الخاقاني، دار المحجة البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1992م، ص 250.

ج- المظهر العملي / التطبيقي

الأيديولوجيا لها وجود فعلي يتجلى عبر جهاز أيديولوجي، ك: الأسرة والمدرسة والإعلام والمعبود وغير ذلك، كما أن لها أجهزة دفاعية ك: الإدارة والجيش والأمن والقانون والسجن. فالأجهزة الأولى تشتغل بالأيديولوجيا، والثانية تمارس القمع والإرهاب، أو المحافظة على الأمن. وفي هذه وتلك تهدف الأيديولوجيا إلى تكييف الأفراد والجماعات مع الواقع المعيش في إطار الدولة والمجتمع، ولكي تضمن الدولة إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لا بد من أن تبسط سيطرتها على الأجهزة الأيديولوجية. وهذا يعني أن الأيديولوجيا -على الصعيد العملي- لها وظيفة محددة تكمن في إعداد أفراد فاعلين ومسؤولين عن أفعالهم.

والأدلوكة بهذا السلوك منحازة إلى فئة أو طبقة أو أمة أو تيار ك: الحداثة، أو نظام ك: الليبرالية، أو عقيدة ك: الشيوعية أو الإسلام، غايتها نشر تعاليمها، والدفاع عن أفكارها ومعتقداتها التي تؤمن بها، وتعبّر عن مصالحها واهتماماتها وشؤونها الاجتماعية والاقتصادية وأهدافها الآنية والمستقبلية.

وهي بذلك كله تسعى إلى الحكم واستلام السلطة.

فهي إذن لها مستويان: نظري - معرفي، وعملي - تطبيقي، أي أنها تشمل جانباً نظرياً يفسّر الواقع، وآخر عملياً يترجم بيانياً إلى مواقف وممارسات وإنجازات ملموسة.¹

¹ محمد تقي مصباح اليزدي، المرجع السابق، ص 253.

المبحث الثاني: ماهية العلوم الإنسانية

1- مفهوم العلوم الإنسانية:

من الصعوبة بمكان تقديم تعريف جامع مانع للعلوم الإنسانية؛ ففضلا عن تنوعها وتشعبها فكل موقف من أية قضية من قضايا العلوم الإنسانية إلا ويصدر عن الاتجاه الفلسفي الذي يتخذه الباحث والمنهج الذي يعتمد في تلك القضايا. كما أن أي تعريف يقدمه المختص في البحث فيها ودراساتها، إلا ويكون للمنهج الذي يتصور أنه الأنسب لهذا النوع من الدراسات الأثر العميق في ذلك.

يذهب البعض وتحت تأثير الفلسفة الوضعية ومنهجها، إلى القول بأن العلوم الإنسانية فرع من فروع العلم الطبيعي بالمعنى الواسع للكلمة، لأن موضوعها وهو الوقائع والظواهر الاجتماعية، كأى موضوع طبيعي يقبل الملاحظة، أو المشاهدة لوجوده في الواقع الفعلي.

وخلافا لذلك، وبالنظر إلى ما يميز العلوم الإنسانية وهو الجانب الروحي يرى بعض المختصين في مناهج العلوم الإنسانية ومن بينهم "ريكمان" أن العلوم الإنسانية تحاول النفاذ إلى الأفكار والمشاعر والمعاني والمقاصد التي تقف وراء الواقع ومختلف التعبيرات وإدراكها إدراكا كيفيا وهذا ما عبر عنه في قوله: "إن الدراسات الإنسانية هي تلك الأنساق التي تعالج عمليات العقل الإنساني وكل ما يمكن أن يكون نتاج ذلك العقل أو يتأثر بعملياته"¹

واضح من هذا التعريف أن هناك اختلاف بين هذه العلوم والعلوم الطبيعية التي تتناول دراسة الأجسام والحركات في المكان قصد الوصول إلى قوانين ونتائج يمكن تعميمها وكذلك التنبؤ بها، في نظر "ريكمان" تتناول الدراسات الإنسانية المشاعر وتهتم هذه الدراسة بالأفكار والمطامح والسلوك الهادف والإبداع الفني والأدوات التي يضعها الإنسان والقواعد التي يفرضها البشر على أنفسهم، والأنظمة التي يستحدثونها فتلك كلها ظواهر تجعل للحياة معنى، ولهذا كانت الدراسات الإنسانية تعالج أساسا وقائع ذات معنى، بعكس العلوم الطبيعية التي تدرس الأجسام والحركات في المكان، وبعيدا عن هذه التعريفات التي ترتبط بتوجهات

¹ ه.ب. ريكمان: منهج جديد للدراسات الإنسانية، محاولة فلسفية، ترجمة علي عبد المعطي و محمد علي محمد مكتبة مكابي، بيروت. لبنان، ط1، 1979، ص 107 .

منهجية محددة يمكن القول أن العلوم الإنسانية، هي التي يكون محورها الإنسانوسلوكة، تجاه نفسه، وتجاه الآخرين على كافة المستويات النفسية، والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، وهذا يعني أن العلوم الإنسانية تضم فئة كثيرة من العلوم الفرعية التي يتعلق كل واحد منها بنوع من النشاط أو السلوك.

تعرف العلوم الإنسانية على أنها تلك العلوم التي تُعنى بوصف ودراسة وتحليل وتوثيق التجربة الإنسانية من جميع جوانبها في مختلف العصور، بما في ذلك العلاقات بين الأفراد وأساليب التعبير والتواصل، وتُعد العلوم الإنسانية مظلة واسعة يمتد أفقها بمجموعة من العلوم الأخرى التي تتطوي تحتها، كما تفتح العلوم الإنسانية نافذة التواصل بين الماضي والحاضر، فتدرس التاريخ الإنساني والعلاقات التي كانت قائمة بين الإنسان والبيئة من حوله، وبين ما يعيشه الإنسان المعاصر في بيئته الحديثة من وسائل تعبير وتواصل مختلفة تبعاً لوجود العديد من التغييرات المنطلقة من محيطه الآخذ بالتطور سريعاً.¹

العلوم الإنسانية هي علوم متخصصة في دراسة الفئات البشرية من حيث أنماطها وصور حضارتها، في الحاضر أو في الماضي وتتقاطع عدة علوم في دراسة الإنسان منها علم الانتروبولوجيا، وعلم النفس وعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق ومهما اختلفت هذه العلوم في مناهجها وأهدافها فهي تجتمع حول موضوع واحد وهو الإنسان. إن العلوم الإنسانية هي مجموع الاختصاصات التي تهتم بدراسة مواقف الإنسان وأنماط سلوكه، وبذلك فهي تهتم بالإنسان، من حيث هو كائن ثقافي، حيث يهتم علم النفس بالبعد الفردي في الإنسان، ويهتم علم الاجتماع بالبعد الاجتماعي، ويهتم التاريخ بالبعدين الفردي والاجتماعي معاً لدى الإنسان.

2- مشكلة المصطلح للعلوم الإنسانية :

إن أول ما يمكن ملاحظته عند الاقتراب من العلوم الإنسانية، سواء لتحديد مفهومها أو موضوعها، هو الاختلاف الذي يشكل أرضية هذه العلوم، فلم يتفق المفكرون والفلاسفة

¹ خيرة بورنان: اتجاهات ومناهج البحث في العلوم الإنسانية، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، العدد 30 مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار الجزائر، 2013، ص 202.

بشأن تسمية هذه العلوم؛ فالأنجلوساكسون فضلوا تسميتها بالعلوم الاجتماعية في حين أن البعض من الفلاسفة الفرنسيين، وعلى رأسهم كلود ليفي ستراوسلا يفرقون بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية ومع أن جان بياجي لا يقر بوجود اختلاف جوهري بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، إلا أنه فضل إطلاق مصطلح علوم الإنسان، وهو عنوان أشهر مؤلفاته، ويتعلق الأمر بكتابه على الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وقد برر ذلك بما يثيره مصطلح العلوم الإنسانية من التأويلات المتعلقة بالقيم والأخلاق

واستخدمت المدرسة الألمانية منذ زمن، وليام دلتاي مصطلحا آخر يتعلق الأمر بما أسماه بـ(العلوم العقلية) أو (علوم الروح) وذلك تمييزا لها عن علوم الطبيعة، من جهة وعلى أساس أن الإنسان وحده يتميز بالروح وقد دخل هذا المصطلح المجال المعرفي الألماني كترجمة للمصطلح الانجليزي (علم الأخلاق) الذي نحتة جون ستيوارت مل ليبدل به على تلك العلوم التي نمت نموًا كبيرًا في القرن التاسع عشر، وتميّزت من مجموعة العلوم الطبيعية، وهذا يعني أن دراسة الإنسان تختلف عن دراسة الطبيعة.¹

أما العلوم السلوكية فهو مصطلح ظهر عند المدرسة السلوكية في علم النفس يتناول بالدراسة والبحث سلوك الإنسان فردًا أو جماعة. وعليه فثمة تداخل بين هذه العلوم والعلوم الاجتماعية والإنسانية، وقد يصل هذا التداخل حد التكامل.

3- تاريخ العلوم الإنسانية:

إن العلوم الإنسانية أو كما تُسمى الإنسانية في مفهومها الحديث تعود في أصلها إلى المدرسية اليونانية الكلاسيكية القديمة، وتحديدًا إلى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث كانت هذه العلوم بمثابة دورات تعليمية أطلقها مجموعة من السلاطين في ذلك الوقت، والتي من خلالها يتم إعداد الشباب للمواطنة فيما كان يسمى دولة المدينة، وكان يُطلق على الإنسانية في ذلك الوقت الطبيعة البشرية، ثم ظهرت هذه العلوم في بعض العصور الإنسانية الأخرى بما في ذلك القرن الأخير قبل الميلاد، وفي العصور الوسطى التي ظهرت

¹ خيرة بورنان، المرجع السابق، 184

بعض العلوم المرتبطة بالإنسان مثل الدراسات اللغوية، والفلسفة والرياضيات، وبعض العلوم الأخرى.

واستمرت حركة الإنسانيات في القرن الخامس عشر الميلادي عند الإيطاليين من خلال شيوع مجموعة من العلوم في ذلك الوقت على غرار علم البلاغة، وعلوم قواعد اللغة، والشعر، والتاريخ، والفلسفة الأخلاقية، بالإضافة إلى بعض الدراسات اللاتينية، وبعد ذلك ظهرت حركة للإنسانيات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بدراسة بعض العلوم مثل اللغة اللاتينية واللغة اليونانية، حيث بدأت العلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر بتشكيل هويتها من خلال البعد عن الجمود الذي اختصت به بعض العلوم الفيزيائية التي نظرت إلى الظواهر الكونية التي تحدث في العالم من خلال مظهرها فقط بمعزل عن الأغراض أو المعاني الإنسانية التي توحى بها تلك الظواهر الكونية.

4- نشأة العلوم الإنسانية وتطورها

إن الاهتمام بالإنسان وشؤونه ليس وليد العقل العلمي المعاصر أو مشاكل الإنسان المعاصرة؛ بل التفكير في الإنسان قديم قدم التاريخ البشري. والسؤال: ما الإنسان؟ أو في صيغة لاحقة-من هو الإنسان؟ هو السؤال المعلن مرة و الخفي مرات أخرى. و بين جدلية الخفاء والتجلي، تعددت الإجابات بتعدد الصيغ التي طرح من خلالها هذا السؤال وبتعدد مصادر الإجابة عنه كذلك. فإذا كان مبحث الإنسان مبحث الفلسفة الأثير والسؤال: ما هو الإنسان؟ السؤال الأعقد في الفلسفة، إلا أن الجواب عنه ليس جوابا فلسفيا خالصا، تتميز به الفلسفة وتحتكره، ففي الأسطورة، كما في الدين و في العلم و في الفن .وعبر مسارها الطويل حفلت الفلسفة بالعديد من الإجابات كذلك إجابات عن هذا السؤال " عن هذا السؤال حتى غدا سؤال الإنسان الهم الفلسفي الأبرز لجل الفلاسفة¹ .

ولئن اتجه الفكر الفلسفي مع اليونان صوب المباحث الكوسمولوجية في المرحلة المسماة بالفلسفة الطبيعية، فإن الفلسفة مع سقراط الذي قيل عنه أنه (أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض)، من مبحث الإنسان مبحثا رئيسيا؛ فمهمة الفلسفة عنده لم تعد النظر في مسائل

¹ خيرة بورنان، المرجع السابق، 184

نشأة الكون وتفسير الطبيعة، بل محاولة أن يعرف الإنسان نفسه، أي محاولته لبناء إنسان جديد وذلك من خلال المبدأ الذي أرسى فلسفته عليه وهو (اعرف نفسك بنفسك).زايد الاهتمام بالقضايا التي تتعلق بالإنسان إن على الصعيد النفسي أو الاجتماعي مع كل من أفلاطون وأرسطو.

لقد عالج أفلاطون من خلال الجمهورية الفاضلة قضايا اجتماعية وسياسية محددة. وبالنظر إلى ما قدمه فلاسفة اليونان في الفلسفة بشكل عام والفلسفة الاجتماعية أو النفسية بشكل خاص، إلا أن هذا العصر في نظر المفكر المغربي المعاصر محمد وقيدي لم يكن مهياً موضوعياً لكي يقوم به مجال معرفي، هو الذي ندعوه اليوم بالعلوم الإنسانية فالإطار الميتافيزيقي الذي حدد بنية هذا الفكر، وكذا اصطباغ هذا الأخير بالصبغة الأسطورية في النظر إلى العالم والإنسان عاق كل تقدم في المعرفة العلمية بالإنسان، ولئن اتجه المسلمون لمساءلة الطبيعة وفقاً للمنهج التجريبي كما تمثله جابر بن حيان والحسن ابن الهيثم وغيرهما فإن اهتمامهم بالقضايا التي تتدرج فيما يصطلح عليه بالعلوم الإنسانية لم يكن بالقدر الكافي الذي يمكن القول معه بأن مبحث العلوم الإنسانية كان حاضراً على نحو صريح¹، فالإنسان قبل نشأة العلوم الإنسانية كان خارج النطاق الإبيستمولوجي للمعرفة، ثم أصبح شيئاً فشيئاً داخل هذا النطاق ويتجلى ذلك من خلال اجتهادات ابن خلدون في دعوته إلى إقامة علم يكون بدراسة الظواهر الإنسانية في جوانبها المختلفة والمتعددة هو علم بالإنسان سماه علم العمران البشري لكن لا نريد بهذا الحديث أن نجزم بنشأة العلوم الإنسانية مع ابن خلدون ولكن نكتفي الآن بالبحث في الوضعية الإبيستمولوجية بالمعارف التي ندعوها اليوم بالعلوم الإنسانية كما كانت عليه عند ابن خلدون.

ويتعلق الخطاب الخلدوني بمستويين هما التاريخ من جهة وعلم العمران من جهة أخرى، لقد أبدى ابن خلدون عزمه بالتجديد المنهجي في علم عريق هو التاريخ، ولقد قاده هذا إلى اكتشاف علم جديد لم يسبقه إليه غيره وهو علم العمران البشري. ذلك أن التاريخ بحسب قوله: "محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما

¹ محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والأيديولوجيا، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الط1983، ص 39 .

إلى الحقّ وينكبّان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق"

ومن خلال منهجه نقل الممارسة التاريخية من مستوى سرد الأخبار إلى بحث منهجي يتطلب من المؤرخ أن يكون ملماً بطبائع العمران، وأحواله قبل أن يفسر الحوادث التاريخية، ويحللها ولا بطلت الممارسة التاريخية.

لقد تعامل ابن خلدون مع المجال الإبستمولوجي لعصره بمستويين؛ في المستوى وجه الانتقاد إلى المنهج المتبع في علم من ذلك المجال وهو التاريخ ولكنه رأى في مستوى ثان أنه لا يمكن التجديد في منهج التاريخ كعلم دون تثوير المجال الإبستمولوجي الذي يوجه ضمنه هذا العلم بأكمله وذلك برفقة علم جديد إليه هو علم العمران¹

على هذا النحو يكون ابن خلدون قد أدخل التاريخ في فلسفة علم الاجتماع الإنساني ومن الفلاسفة الذين كان لهم الأثر البارز في تحطيم الأيديولوجيا الكنسية والاتجاه نحو العقلانية الفيلسوف الإيطالي جان باتيستا فيكو (1669-1744) فهو في نظر الكثيرين، أول من أرسى القواعد المنهجية لدراسة العلوم الإنسانية بوجه عام والتاريخ بوجه خاص في كتابه (العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم) الذي يعد محاولة أصيلة في تاريخ العلوم الإنسانية فالمجتمع الإنساني صنعة الإنسان، والإنسان قادر على فهم صنعته. وقد بين "فيكو" أن كل أمة أو حضارة في تاريخها بعصور ثلاث تعبر عن ثلاث معان للإنسان: عصر الآلهة، يقابله الإنسان الإلهي، عصر البطولة ويقابله الإنسان البطولي وعصر الإنسان، يقابله الإنسان الإنساني..

وإذا كان ديكرت يشكل اللحظة الأولى في الفلسفة الحديثة التي طرح فيها السؤال ما الإنسان، فإن كانط يمثل اللحظة الثانية في هذه الفلسفة معتبرا إياه السؤال المحوري الذي يختزل كل الأسئلة؛ فكل ما يثيره البشر من موضوعات لا يكاد يعدو أسئلة ثلاثة:

¹ محمد وقيدى، مرجع سابق، ص 291.

-ما الذي يمكنني أن أعرفه؟

-ما الذي ينبغي لي أن أعمله؟

-ما الذي أستطيع أن أمله؟. وهذه المسائل الثلاث تتلخص جميعا في سؤال واحد: ما هو الإنسان؟.

لكن لا القرن السابع عشر ولا القرن الثامن عشر كان مهينين حسب فوكو لميلاد العلوم الإنسانية. إن العلوم الإنسانية لم ترث حقلا معرفيا مرسوم المعالم موضوعا ومنهجيا، يترتب عليها تطويره، فالعصر الكلاسيكي تشكل على نحو لا يسمح بوجود حقل ووعي معرفيين يخصان الإنسان كإنسان، كما أن بنيته المعرفية لم تتضمن فلسفة، أو خيارا سياسيا أو أخلاقيا، ولا حتى نظرية علمية يمكن أن تكون خلفية لمفهوم الإنسان¹

إذ ميلاد هذه العلوم كان في مستهل القرن التاسع عشر، عندما ظهرت محاولات منهجية لدراسة الإنسان دراسة علمية، لكن هذه المحاولات واجهتها عوائق.

5- فروع العلوم الإنسانية

5-1: علم النفس:

إن علم النفس يدرس السلوك والعمليات الذهنية ومنهجهم في ذلك مثل مناهج العلوم الأخرى غالبا، فهم يصوغون نظريات، تسمى أيضا فرضيات تعبر عن التفسيرات المحتملة لمشاهداتهم. ورغم الجهود المعروفة في تاريخ الفكر البشري في هذا الميدان ، إلا أن تحوله إلى مجال العلم بمفهومه الحديث الذي يعتمد على مناهج وبناء النظريات بدأ في منتصف القرن الثالث عشر التاسع عشر، وما بعده وما سبب الاختلاف حول الموضوعات التي يجب دراستها في هذا العلم وكيف تدرس، انقسم علماء النفس إلى أربع مدارس أو مذاهب هي «المدرسة البنيوية والسلوكية والجشطالتيية ومدرسة التحليل النفسي» وهناك تطورات لحقت هذا العلم وإن كان أغلب المعاصرين يميلون إلى طريقة الإنتقائية من بين ما سبقهم من مدارس

¹ Michelle Foucault, les mots et les choses, éditions Gallimard, paris, 1966, p355

ومناهج، وتبقى مدرسة التحليل النفسي والمدرسة السلوكية الأشهر في مجال علم النفس والأكثر تأثير في ميادين الفكر.

فلعلم النفس تعاريف مختلفة، لأن مدارسه متعددة ومتنوعة، فبصفة عامة، يمكن القول بأنه علم الخبرة والسلوك وكل علماء النفس يساهمون بصورة مباشرة أو غير مباشرة في خدمة هذا أو ذاك من فرعي علم النفس الأساسيين : فبعض علماء النفس يهتمون الخبرة في حين يهتم البعض الآخر بدراسة السلوك كما يهتم فريق ثالث وهو الغالبية بدراستهما معا. وكلهم ينظرون إلى السلوك والخبرة بوصفهما تكيف العضوية بالنسبة للمؤثرات التي تقع عليهما.¹ فيتضح من خلال التعاريف، أن موضوع علم النفس هو الظواهر النفسية لدى الفرد وقد نتج عن شدة تعقيد الظاهرة النفسية وتشابكها.

5-2 علم الاجتماع :

يعني بعلم الاجتماع دراسة الأفراد والجماعات والمؤسسات التي تشكل المجتمع البشري، وأما نظريات هذا العلم، فهي مايصوغه علماءه، من نظريات تبني على ملاحظة الجوانب المختلفة في المجتمع، ويعد ابن خلدون صاحب المقدمة أشهر من أرسى أصول هذا العلم وفق رؤية إسلامية في القرن الثامن الهجري والرابع عشر الميلادي.² أما في الغرب يعلن أوجست كونت عن ميلاد علم جديد ينسبه إلى حماية الأمر على تسميته بعلم الاجتماع³ وذلك في المنتصف الأول من القرن الثالث عشر/التاسع عشر، ثم تحول على مشروع كبير مع تلميذه دور كايم) ثم تلميذه (إيفي بريل) وكذا (ماكس فيبر) وغيرهم.⁴ ووقيدي كان ينطلق في مفهومه علم الاجتماع بأن كلا من إبن خلدون وأوغيست كونت يتحدث عن علم جديد موضوعه الاجتماع الإنساني ولكن دون أن يتطابق بالضرورة

¹ عماري جميلة ، جهود محمد وقيدي الاستمولوجية، مذكرة لنيل شهاة الماستر ، جامعة عمار تليجي ، 2018-2019 ، ص ص 73-80.

² حسن بن محمد حسن الأسمرى، النظرية العلمية الحديثة، مرجع سابق، ص 220

³ محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والايديولوجيا ، دار الطليعة، بيروت، ط 1983، 1، ص 19.

⁴ حسن بن محمد حسن الأسمرى، النظرية العلمية الحديثة، مرجع سابق، ص 220، ص 221

ما يقصده كل منهما بهذا العلم مع ما يقصده الآخر ولفهم هذا الأمر ينبغي الوقوف بالمقارنة عند المجال الإبستمولوجي الخاص بالعلم الذي ينسب إليه كل منهما دراسة الاجتماع الإنساني.¹

فهو بذلك يرد البحث في الوضعية الإبستمولوجية للمعارف التي يدعوها العلوم الإنسانية، كما كانت عليه عند ابن خلدون وأوغست كونت، ومن خلال عصرهما.² فيجد كل من ابن خلدون وأوغست كونت يعبر عن وعيه بأنه يضيف إلى العلوم القائمة في عصره علما جديدا يكون موضوعه الظواهر المجتمعية ولكن البنية المعرفية التي يضيف إليها كل منهما العلم الذي يتحدث عنه مختلفة.

لذلك يرى وقيدي بأن المقارنة المثمرة بين هذين المفكرين هي التي تبتعد عن التجريد لكي تضع الخطاب الصادر عن كل منهما في الإطار المعرفي الذي صدر عنه.³

فيعتقد وقيدي أن الخطاب الخلدوني يبدي عزمه على التجديد المنهجي في علم عريق هو التاريخ في الوقت الذي يعلن فيه عن وعيه بأن هذا التجديد المنهجي في علم قد قاده إلى اكتشاف علم جديد لم يسبقه إليه غيره وهو علم العمران البشري. وهذين العلمين يتمثل لدلي ابن خلدون ما ندعوه اليوم بالعلوم الإنسانية فحين علم الاجتماع عند كونت هو العلم الذي كان يريد أن يرسم له طريق تطبيقه لهذا المنهج لكي يكون جديرا بأن يعتبر معرفة وضعية (...). حيث يرى كونت أن الظواهر المجتمعة أكثر تعقيدا ، وهو الأمر الذي يفسر العلم الذي يدرسه في أخرى قائمة العلوم الوضعية. ويمكن أن يتبين تعقد الظواهر المجتمعية تتطلب معرفة بقوانين الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية.⁴

¹ محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والايديولوجيا، مصدر سابق ، ص 19

² محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والايديولوجيا، منشورات عكاظ الرباط، ط2، السنة 1983، ص4

³ محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والايديولوجيا، ط1، مصدر سابق ، ص 19

⁴ محمد وقيدي، الابستمولوجيا الوضعية عند أوغست كونت ، مصدر سابق ، ص 239

فضرورة علم الاجتماع لم تكن ضرورة معرفية، فحسب بل كانت مطلبا إيديولوجيا أيضا وكما تبين إذن أن علم الاجتماع يشمل كل مجال العلوم الإنسانية جميعها. وعليه فإن علم الاجتماع المعرفي يمكن أن يفيد الأبنستمولوجيا بأن يضع أمامها نتائج بحوثه التجريبية حول تراتب أنواع المعرفة كظاهرة مجتمعية وبين الظواهر والمؤسسات المجتمعية الأخرى وأن علم الاجتماع المعرفي يقدم بذلك الأبنستمولوجيا نحو فهم الدور الفعلي للمعرفة ضمن البنيات المجتمعية المختلفة¹ فالأبنستمولوجيا تشترك مع علم الاجتماع المعرفة كموضوع هو عالم الرموز المعرفية، وفي الواقع فإن عددا من الرموز المجتمعية كالصور المتماسكة للعالم الخارجي، والمقولات المنطقية و المقادير الرياضية و الجهاز المفهومي للعلوم المختلفة، تتم بالأبنستمولوجيا وعلم الاجتماع المعرفي على السواء فلقد كانت المعارف الإنسانية تقبل حالة خلط روري عندما كانت في المرحلة أدنى من تطورها وكان بإمكان عقل بشري واحد أن يجمع بينهما، ولكن تطور المعارف في كل مكان أدى بالتدرج إلى ضرورة التقسيم المنظم لهذه المعارف وإلى استقلال كل منها عن ذلك الكل، وإن هذا المبدأ والذي يبرره أوغيست كونت تقسيم المعرفة الإنسانية إلى علوم متعددة ويصدق على هذا الكل الذي يدعوه علم الاجتماع.²

ومن ناحية الإيديولوجية يمكننا أن نقول بأن وظيفة علم الاجتماع بالنسبة للمجتمع ليست موضوعيا كما يريد كونت أن يقدمها لنا، إن كونت يقدم لنا علم الاجتماع من حيث أنه الدراسة الوضعية لظواهر المجتمع وبوصفه الوسيلة الفعالة، التي تقيم حلا وسطا، فيما يخص السياسة الوضعية من الناحية العملية بين الأفكار القوى الرجعية والقوى الثورية. لهذا فإن علم الاجتماع المعرفي يضع أمام الإبنستمولوجيا أن تعمل بوسائلها الخاصة على حل المسألة المتعلقة بمعرفة ما إذا كانت كل منظورات المعرفة المختلفة متساوية من حيث ص

¹ محمد وقيدي، ماهي الأبنستمولوجيا؟ مصدر سابق ، ص 208

² محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والأيديولوجية، ط1، مصدر سابق ، ص 39

لاحيثها أما إذا كان بعضها أدنى من ذلك من البعض الآخر (كأن يكون " إيديولوجيا " أو "طوباويا" ...الخ) فعلم الاجتماع يسهم في البحث الاستمولوجي¹

ومادامت العلوم الإنسانية تدرس الإنسان من حيث هو فرد ومن حيث هو عضو في جماعة في آن واحد معا، وهي تواجه صعوبات خاصة تلخص كلها في التضاد ما بين الحتمية وحرية الاختيار، وترجع إلى تباين هذه العلوم (علوم النفس التاريخ علم الاجتماع).² فقد أصبح من المقبول أن نوسع من مجال الإستمولوجيا، وبما أن العلم هو إنتاج الإنسان في نهاية الأمر، فإن من المفيد أن نستخدم في تحليلنا له المعطيات التي تقدمها لنا العلوم الإنسانية.³

ولهذا نجد محمد وقيدي يحافظ في فهمه بالإستمولوجيا على المعطيات التاريخية والنفسية لأنها عنده تدعم المعطيات التحليل الإستمولوجي نفسه وفي طرحه هذا، وجدناه لم يخرج عن نطاق الاستمولوجيون الغربيون، وخاصة باشلار وجون بياجى، وخاصة في تأويلهم الاستمولوجيا للعلم النفس "مما يجعل الاستمولوجيا تفكيراً علمياً في المعرفة العلمية".⁴

3-5 : علم التاريخ

مفهوم علم التاريخ ونشأته :

يُعنى علم التاريخ بشكل كبير بدراسة التاريخ منذ بدء الحياة فوق سطح الأرض إلى وقتنا هذا، كما يهتم بتسليط الضوء على كل الأحداث التي جرت خلال هذه الفترة. يمكن تعريفه بأنه عبارة عن دراسة منهجية متخصصة في تطور تخصص التاريخ بالإضافة إلى جملة من الأعمال التاريخية المتعلقة بموضوع معين، وتخضع هذه المواضيع للمناقشة والبحث من قبل

¹ محمد وقيدي، ماهي الاستمولوجيا؟ مصدر سابق ، ص 208

² بول موى، ترجمة فؤاد حسن زكرياء، المنطق وفلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، ص 219

³ روبرير بلانشيه ، ترجمة حسن عبد الحميد، نظرية المعرفة العلمية (الاستمولوجيا)، مرجع سابق، ص 57

⁴ محمد وقيدي، ماهي الاستمولوجيا؟ مصدر سابق ، ص 19

باحثي التاريخ بشكل موضوعي ومنطقي، كما هو الحال في تاريخ الكاثوليكية أو تاريخ عصر صدر الإسلام، وذلك باستخدام مناهج معينة حيث يعتبر مرور الزمن وتقدمه كفيلاً بإحداث تغييرات جذرية على اهتمامات المؤرخين البحثية، حيث بزغ ذلك في التغير الذي طرأ على اهتمامات المؤرخين في العقود الأخيرة حول التاريخ الدبلوماسي والاقتصادي والتقليدي، خاصة المتعلقة بالاجتماعية والثقافية. من الجدير بالذكر، فإن مصطلح التاريخ يشير إلى عملية تسجيل الأحداث التي حدثت في الماضي وتحليلها ووصفها بالاعتماد على أسس عملية محايدة سعياً للبحث عن الحقائق والقواعد لغايات استيعاب الحاضر وإيجاد تنبؤات تتعلق بالمستقبل، بالإضافة إلى البحث الدؤوب عن الوقائع الزمنية التي حدثت وفقاً للتعين والتوقيت¹.

يرتبط مفهوم التاريخ بالماضي، ويستخدم مصطلحه للتعبير عن مجال الدراسة المتعلقة بتفسير السجلات الموثقة عن النشاط البشري السابق والأشخاص والمجتمعات والحضارات كافة من الماضي إلى الوقت الحاضر، كما أنه يشمل أيضاً جميع ظواهر الطبيعة وتغيراتها مع الزمن، ومن خلال تفسيره وتحليله لجميع الروايات التاريخية، فهو يحفز التساؤلات حول ما ستؤول إليه الأمور بسبب عمليات التطور والتغيير، وفي الماضي صُنّفت دراسة التاريخ بأنها جزء من العلوم الإنسانية والأدب، لكن لاحقاً اعتبره العديد في الأوساط الأكاديمية الحديثة أنه علم اجتماع، وقبل ظهور أقدم السجلات الموثقة والتاريخية التي تحتوي على 99% من البيانات المتعلقة ببداية البشرية، كان هناك عصور ما قبل التاريخ التي اكتشفت من خلال علوم الحفريات والآثار، أما الثقافات التي لم يظهر فيها أي سجلات مكتوبة توثق تاريخها، فكان يُستخدم فيها التقاليد الشفوية، أي النقل الشفوي، وهذا بالطبع جزء أساسي وهام من تطور التاريخ ولا زال هناك العديد من المؤرخين الذين يكملون السجلات المكتوبة لدى بعض الثقافات بالاستعانة بالتاريخ الشفوي، مثل تاريخ السكان الأصليين الأستراليين المستمد من مصادر شفوية. وقد اشتق مصطلح التاريخ من اللغة اليونانية القديمة "تاريخياً" والتي تعني التعلم أو المعرفة من خلال البحث والتحقيق، أما في اللغة الإنجليزية الوسطى

¹ نجاه محاسيس، مفا تيح علم التاريخ ، ط1، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان-الأردن: ، 2010 ، ص 59.

كان معناها "القصة"، ودخل مصطلح التاريخ إلى اللغة الانجليزية في العام 1390، وأثبتت الصفة التاريخية عام 1561 من خلال المؤرخ أي الباحث عن التاريخ والذي يسجل الأحداث فور حدوثها، والذي بدأ منذ عام 1531، ومع تطوّر العصور وعلم التاريخ ظهر علم التأريخ ويُقصد به دراسة وتحليل التاريخ من خلال الفلسفة، ويمكن دراسة التاريخ من وجهات نظر قومية أو أيديولوجية مثل الأيديولوجية التي تبنت التأريخ الماركسي، بالإضافة إلى اعتماد بعض المؤرخين التاريخ الافتراضي الممثل لبعض أشكال التكهّنات التاريخية كوسيلة لاستكشاف وتقييم النتائج المحتملة إذا لم تحدث بعض الأحداث، أو إذا حدثت بطريقة مختلفة، فيتكهن المؤرخون تبعاً لوجود بعض المعلومات المساعدة والتصورات في خيالهم، وهو ما يشبه التاريخ البديل للخيال، ويمكن للمؤرخين من خلاله استنباط الأحداث التي يمكن أن تقع استناداً لمعلومات وأحداث تاريخية وقعت سابقاً¹

أهمية التاريخ ودراسته:

إن أهمية التاريخ ودراسته تأتي كونه يُعدّ من أهمّ الأسس التي تعتمد عليها المجتمعات في تطوّرها وتخلفها، كما أن للتاريخ علاقة وثيقة بجميع العلوم، وعند دراسة العلوم المختلفة وتاريخها فإنّ هذا بمثابة دراسة للتاريخ.

فعلم التاريخ يعطي للإنسان تصوّراً دقيقاً وواضحاً عن أحوال العالم القديم وتجاربه، ويُعدّ هذا مفتاحاً لتجنب الأخطاء التي وقع بها الأقدمون، ويعمل علم التاريخ على حفظ تاريخ الأمم وتراثها، فتميز الدول بتراثها سببهُ حفظ التاريخ بهذا التراث، كما يُسهم في معرفة ما كانت عليه الأمم السابقة بشكل عام، ومعرفة الأساليب التي أسهمت في تقدم العقل البشري، وكذلك التقدم في مختلف العلوم ونظرياتها، فأفكار الأمم السابقة تختلف عن الحاضر فهي دائمة التطور، والتاريخ يُسهم في النهضة التي تقوم عليها الأمم والحضارات، وإدراك العوامل التي اندثرت من خلالها وتجنبها، فربما تُعدّ أسبابُ الاندثار أسباباً فكريةً لمؤسسةٍ معينةٍ في حضارةٍ ما، وبعد مدةٍ من الزمنِ ربما حصلت اختلافات في هذه المؤسسة

¹ وقيدي محمد، العلوم الإنسانية بين التصنيف النظري و النظام التربوي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص 26.

من تمرد أو اطماعٍ بشريةٍ لحب السيطرة، هذه الاختلافات والنزاعات أسهمت في إنهاء أغلب الحضارات واستبدلت غيرها.

كما يساعد التاريخ في معرفة الأحداث وتاريخ حصولها، وما صاحبها من تغيرات في الأحداث ومجرياتها، وعلم التاريخ يساعد في معرفة أحوال الأمم والحضارات السابقة، سواء في القوة أم الضعف، والنشاط أم الركود، وكذلك الجهل والعلم وغيرها من صفات السابقين، ويعمل التاريخ على معرفة المتعاصرين من الناس مع بعضهم، ما يسهم في تحديد الأحداث ومعرفة صوابها من خطأها والحد من اللبس فيها.

إن لدراسة التاريخ في الإسلام أهمية كبيرة وفوائد عديدة من أهمها أنها تعمل على تثبيت قلوب المؤمنين، والطريق إلى معرفة سير الصالحين والافتداء بهم، كما أنها تعطي عبراً ودروساً عن السابقين، وتسهم في التفريق بين السنن الكونية وسنن التمكين والنصر وتُبشِّرُ بنهاية الظالمين والنصر والعزة للمؤمنين الصادقين ولو بعد حين¹.

6- مواقف بعض الفلاسفة من الأيديولوجيا

الفلسفة-كوعي ذاتي بحقبة محددة تاريخياً- هي ايديولوجيا، وتحليل العلاقة بين الفلسفة والأيديولوجيا صعب جداً، لأن الأبحاث عن الأيديولوجيا في الأدبيات الماركسية قليل-على الأقل باللغة العربية- على الرغم من أن حقيقة الفهم العلمي للأيديولوجيا، وخاصة تطور مفهوم (الأيديولوجيا العلمية)، ذو أهمية فائقة في الفلسفة.

ويتفق أغلب الفلاسفة الماركسيين (خصوصاً منهم السوفييت) على أن الفلسفة هي شكل نوعي من الأيديولوجيا، وهذا الاعتراف صحيح، وإن كان لوحده، لا يحل المشكلة. يؤكد عدد من الدراسات الماركسية للمسألة أن كارل ماركس وفريدريك انجلز كانا يستخدمان الاصطلاح (أيديولوجيا) بالمعنى السلبي الذي اكتسبته تاريخياً في زمانهما، مثلما يخلص الدكتور توفيق شومر في بحثه إلى أن: (مفهوم الايديولوجيا حسب الفهم الماركسي لا يمكن إلا أن يكون مفهوم يدل على تصور خاطئ عن الحقيقة. ولذلك لا يجب - إن أراد الماركسيون أن ينسجموا مع أنفسهم - ولا يصح أن يطلقوا على فكر الطبقة العاملة بشكله

¹ حسن عثمان، منهج البحث التاريخي (الطبعة الثامنة)، القاهرة: دار المعارف، القاهرة، 1964، ص 20.

الماركسي - اللينيني صفة الأيديولوجيا، لأن في ذلك إشراك لفكر الطبقة العاملة مع فكر الطبقة النقيض، في المستوى الثاني للبنية الفوقية عندما تتحول الأفكار والثقافات والفلسفات لأن تشكل نوعاً من الفكر النسقي¹.

1- الفيلسوف ميشال فوكو والأيديولوجية

يعرف الفيلسوف ميشال فوكو بفيلسوف أركيولوجيا المعرفة الذي يذكر في مقولة حول الفلسفة: "يظهر لي أن ماركس ونييتشه وفرويد لم يضيفوا دلائل جديدة للعالم الغربي؛ إنهم لم يضيفوا معنى جديداً على أشياء لم يكن لها معنى، إنما غيروا في الحقيقة طبيعة الدليل والعلامة وبدلوا الكيفية التي كانا يؤولان بها"، بالإضافة لبول ريكور وما أوضحه من آليات اشتغال الأيديولوجيا حيث ترى الماركسية في الأيديولوجيا على أنها كلها طبقية، تخدم المصلحة الطبقية، ولا تطلق الماركسية على نفسها هذه الصفة؛ لأنها تدعي أن البروليتارية طبقة كونية تمثل انحلال الطبقات كلها فيها. وليست المصلحة هي سبب التيه عن الواقع بل الجهل بالحركة التاريخية. ويستعمل ماركس كلمة مصلحة في معنى خاص، لا يعني بها مصلحة فرد، بل يعبر بها عن قوى كامنة، في بنية العلاقات الإنتاجية حسب تعبير لاحق تكشفه الممارسة. ويعني ماركس مصلحة الطبقة بوصفها طبقة تعمل غالباً في ذهن الفرد بدون وعي منه، وتقوده أحياناً إلى أعمال تعاكس مصلحته الآنية. وإن مادية القرن الثامن عشر هي التي كانت تضخم دور الدوافع النفسانية والمصالح الفردية، أما المادية التاريخية فإنها ترى مصلحة الطبقة بوصفها قانوناً يتحكم في النفس الفردية من الخارج.²

استعمل نييتشه الأيديولوجيا من حيث إنها مجموع الأوهام والتعليقات والحيل التي يعاكس بها الإنسان/ الضحية قانون الحياة؛ فيُنظر إلى الأيديولوجيا (إذن) انطلاقاً من الحياة بوصفها ظاهرة عامة تفصل عالم الجماد عن عالم الأحياء؛ وذلك باعتبار أن العقل (في التصور النييتشوي) عاجز عن خلق أي قيمة إذا لم يرتبط بالحياة. فمن يعادي الحياة، بالنسبة لنييتشه،

¹ مالك ابوعليا ، الأيديولوجيا والوهم، مقال منشور على موقع الحوار المتمدن:

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=493023>

² عبد الله العروي، مفهوم الأيديولوجيا.. الأدلوجة، دار الفارابي للنشر والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1980 ..

يلجأ إلى قيم زائفة ووهمية. ويعد نيتشه أن كل ما أنتجه الإنسان من معارف وحقائق عبارة عن أوهام نسينا أنها كذلك؛ لأنها لا تنتج بفعل سوء استخدام العقل؛ بل إنها ناتجة عن رغبة لا شعورية في حفظ البقاء¹.

2- الفيلسوف هيرماس والأيديولوجيا

لا يمكن لأحد أن ينكر ما بلغت إليه الإنسانية اليوم من حيث القدرات التكنولوجية والتقنية، وهذا أمر ليس وليد الصدفة أو اللحظة، بل هو نتاج تراكم تاريخي موغل في القدم ساهمت فيه الإنسانية جمعاء كل حسب إمكانياته وقدراته المشروطة تاريخيا وسوسيو معرفيا. كما أنه لا يمكن إنكار فضل المجتمع الغربي في هذا التطور فهو لا يزال ومنذ عدة قرون يقود سفينة التقدم التقني والعلمي في العالم، فبواسطة هذا التقدم تم تسهيل حياة الإنسان في العيش والحياة، فقد قرب المسافات وسهل الأعمال وطور حياة الإنسان

فمفهوم التقنية " التكنولوجيا "يعني اصطلاحا التطبيقات العلمية للعلم و المعرفة في جميع المجالات، أو بعبارة أخرى كل الطرق التي يستخدمها الناس في اختراعاتهم واكتشافاتهم لتلبية حاجاتهم وإشباع رغباتهم. بدأت التقنية الصناعية منذ نحو 200 سنة، وذلك مع تطور المحرك البخاري والآلات التي تُدار بالطاقة ونمو المصانع وإنتاج السلع بكميات كبيرة. وقد أثر تقدم التقنية على جوانب عديدة من حياة الناس وسهلت معيشتهم، داخل البيئة الطبيعية بصفة عامة².

3- التقنية والعلم كأيديولوجيا

من خلال كتاب هابرماس التقنية والعلم كأيديولوجيا يؤكد انه غالبا ما يتم استخدام مفاهيم مثل التقنية والعلم كترديف لمفهوم العقلانية، فببروز الحركة العقلانية ازداد استخدام الإنسان لعقله دون رقيب أو حسيب، فتطورت التقنية وتعزز التفكير العلمي العقلاني المنفصل عن

¹ عزالدين بوركة، صراع الأيديولوجيا بين الحقيقة والوهم متاح على الموقع <https://mana.net/10148>

يورغن هابرماس : التقنية والعلم كأيديولوجيا، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل الطبعة الأولى، كولونيا ألمانيا، 2003
²: ص44

التفكير الخرافي الذي يفسر جميع الظواهر الطبيعية تفسيرات خرافية غير واقعية ولا تخضع للمنطق العلمي. فهذا المفهوم "العقلانية" رغم انتشاره الواسع إلا أنه يبقى مفهوم غامض وغير محدد تحديدا دقيقا شأنه في ذلك شأن الكثير من المفاهيم الفلسفية الأخرى. ويرجع الفضل إلى ماكس فيبر في استخدام مفهوم "العقلانية" لوصف الشكل الرأسمالي للنشاط الاقتصادي، والنمط البرجوازي للمبادلات، والأنماط البيروقراطية للسيطرة، فهي تعني سيادة العلم والتقنية في تفسير العالم الاجتماعي والتخلي الكلي عن الأسطورة والاعتقادات الغيبية، فالعقلانية تعني نهاية أو نزع الغرابة عن العالم. وعليه فإن العقلنة حسب السوسيولوجي الألماني ماكس فيبر Max Weber هي بداية اتساع المجالات الاجتماعية التي تخضع لمعايير الحسم العقلاني، وقد أدخل ماكس فيبر هذا المفهوم لكي يحدد شكل فاعلية الاقتصاد الرأسمالي وشكل حركة الحق الخاص البرجوازي وشكل السيطرة البيروقراطية، وترتبط العقلنة المتقدمة للمجتمع بالمأسسة للمجتمع، وبالتالي تحول المؤسسات ذاتها وتلغي الشرعية القديمة و"تنزع السحر" عن العالم وعن الموروث الثقافي بكليته، كل ذلك إنما هو الجانب الآخر "العقلانية" متنامية للفعل الاجتماعي، أما بالنسبة لهابرماس فإنه يؤكد أن "العقلنة" المتزايدة للمجتمع تتم بموازاة عملية تضفي صبغة المؤسسة "المأسسة" على التقدم العلمي والتقني فبقدر ما تغدوا الإنتاجية هي المعبى الوحيد للمجتمع وتضع نفسه فوق كل مصلحة.¹

فعمل فيبر حسب هابرماس لا يخرج عن إطار السوسيولوجية التقليدية التي حاولت معرفة تأثير الحداثة على المجتمعات التي يمر إدراكها بها، ففيبر استخدم مصطلح العقلانية كما استخدم بعض السوسيولوجيين مصطلحات أخرى من قبيل، الجماعة والمجتمع، تضامن ألي وعضوي، فئات رسمية وغير رسمية، سيطرة تقليدية وبيروقراطية...²

فرغم أن هابرماس يسير على خطى ماركيز الذي انتقد الطابع الصوري للعقلانية في صورتها الفيبرية. إلا إنه يتجاوز المقولات الفيبرية والمركيزية على حد سواء. لذلك يقول

¹ يورغن هابرماس، المرجع السابق، ص 53.

² سالم يفوت: المناحي الجديدة في الفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1999: ص 93

هابرماس بأن النجاح لم يحالف ماكس فيبر ولا هربرت ماركيز، لذلك حاول هو إعادة صياغة مفهوم العقلانية. ويكيفه تكيفا يجعله يسير على قدميه وليس على رأسه كما كان مع فيبر. فحسب هابرماس قد كانت البدايات الأولى للرأسمالية تقوم على الفعل العقلاني بالهدف، إلا أنها لم تصل مطلقا على الرغم من حالت هامة من التقدم

فالمجتمع التقليدي لا يمكن أن يفهم فقط في تلك المجتمعات التي تقوم بتفسير الوقائع أسطوريا أو ميتافيزيقيا، فهي توجد دائما عندما يتوقف التطور في أنساق المجتمع، وهذا يؤدي إلى إقصاء الحس النقدي داخل المجتمع، فهذه الرسوخية هي معيار عقلائي بالنسبة إلى تحديد المجتمعات التقليدية من أمثال تلك التي عبرت العتبة وصولا إلى التحديث. فالنظام الرأسمالي من خلال أسلوب الإنتاج، يقدم شرعية السيطرة التي يمكن أن تستجدي من سماء التراث الثقافي، إنما تنتزع من قاعدة العمل الاجتماعي ومؤسسة السوق التي يبادل فيه الناس الذين لا ملكية لهم قوة عملهم كبضاعة وحيدة، تعد بعدالة تكافؤ علاقات التبادل، فهذه الأيديولوجيا البرجوازية تحول علاقات الفعل التواصلي بواسطة مقولة العدالة، غير أن مبدأ المقابلة إنما هو الآن مبدأ تنظيم سيرورات الإنتاج الاجتماعي وسيرورت إعادة هذا الإنتاج ذاته، لذلك يمكن للسيطرة السياسية في تقدمها أن تشرعن "من أسفل" بدل "من أعلى" عبر الاعتماد على الذات الثقافية



الفصل الثاني

الفكر الإستمولوجي عند محمد

وقيدي



المبحث الأول: التعريف بمحمد وقيدى:

1-حياته

الكاتب محمد وقيدى مفكر وكاتب مغربي محمد وقيدى (1946 - 7 أغسطس (آب) 2020) هو كاتب ومفكر وأستاذ جامعي مغربي. حصل سنة 1979 على دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. ويعدّ من أبرز الأسماء في الفلسفة والفكر في المغرب العربي خصوصاً والعام العربي عمومًا، من خلال مؤلفاته في العلوم الإنسانية وأعماله الفلسفية، وكتابات في الاستمولوجيا، وترجماته لغاستون باشلار وغيره من الفلاسفة المعاصرين.

حيث درس الاستمولوجيا بكلية الآداب في فارس ثم بكلية الآداب بالرباط وكم درس أيضا تاريخ الفلسفة وخاصة الفكر اليوناني القديم ثم الفلسفة الحديثة، درس اختصاصات عليا أخرى أهمها مدرسة علوم الاعلام عضو مؤسس لجمعية فلسفية منها الجمعية الفلسفية المغربية والجمعية الفلسفية العربية كما شارك في مؤتمرات وندوات داخل المغرب وخارجه¹. وبدأ مساره المهني والفكري وسيرته الفلسفية كمدرس للفلسفة في التعليم الثانوي وهذه المرحلة كان لها تأثير فعال وإيجابي على مساره الفكري. حيث يحكم وقيدى أنها المرحلة التي قرأ فيها الكثير من الأعمال الفلسفية الهامة التي رسمت أمامه الطريق حول الاتجاه سيدرسه ويتوسع فيه وكان له اشتغالا كثيرا خاصة في مجال الإستمولوجيا (فلسفة العلوم) الذي يعد من العرب القلائل الذين بحثوا في هذا الموضوع وألفوا فيه، وصارت كتبهم مراجع لا يستغني عنها في العديد من الجامعات المغربية والعربية وهو من الأسماء التي اهتمت بالدرس الفلسفي والكتابة الفلسفية بالمغرب بعقود.

عبد الكريم بلحاج، وقفة مع وقيدى حول مشروعه الفكري بين الاستمولوجيا والسيكولوجيا التكوينية ، علم النفس، الرباط،¹

2- مؤلفات محمد وقيدى

وله العديد من الإصدارات¹ ومنها في الاستمولوجيا:

كتاب فلسفة المعرفة عند باشلار:

الصادر عن دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت سنة 1980، حيث خصصه بالتحديد وكان عنوانه الفرعي بالأستمولوجيا الباشلارية وفعاليتها الإجرائية وحدودها الفلسفية، وتضمن هذا الأخير المشروع الباشلاري والتصور الباشلاري لتاريخ العلوم، بالإضافة إلى الإستمولوجيا اللاديكاريتية وتناول فيه كمدخل لكتاب باشلار بين علم وفلسفة عصره.

كتاب ماهي الإستمولوجيا؟ :

الصادر من دار الحداثة بيروت في لبنان سنة 1983 وتناول هذا الكتاب عدة قضايا تتعلق بالأستمولوجيا، وهو بعنوانه ماهي الإستمولوجيا؟ لا يعني تحديد مفهوم دقيق للأستمولوجيا وإنما البحث في مهام ومعايير وإمكانات والشروط التي تتحكم في تحقيق الإستمولوجيا.

الإستمولوجيا التكوينية عند جان بياجيه:

الصادر عن دار البيضاء بالمغرب سنة 2007، حيث تطرق فيه الى ماهي الإستمولوجيا التكوينية؟ من خلال تحليل استمولوجيا التكوينية عند جان بياجيه، ثم تطرق الى الإستمولوجيا ونسق علوم المعرفة، وتضمن الإستمولوجيا ونظرية المعرفة والأستمولوجيا وتاريخ العلوم بالإضافة إلى الإستمولوجيا والمنطق وعلم النفس والبيولوجيا، ولأستمولوجيا وعلاقتها بميادين معرفية متعددة، ثم ختم الكتاب بتصنيف الإستمولوجيا التكوينية في الفلسفة والعلوم الإنسانية.

كتابة التاريخ الوطني:

والصادر عن دار الأمان بالرباط سنة 1990 وقسمه إلى أربعة فصول، حيث كان عنوان الفصل الأول النقد الإستمولوجي ضرورته ومستوياته، أما الثاني كتابة التاريخ الوطني

¹ ملتقى اختفاء المحمدية، بالفكر محمد وقيدى، 20 يناير 2015، Assabah.ma/78598.html

واستعادة التوازن المعرفي، والثالث التفكير في الوحدة من خلال عوائقها، والرابع والأخير التعميم وازدراء التفاصيل.

كتاب العلوم الإنسانية والإيديولوجيا:

حيث صدرت لهذا الكتاب طبعتين الطبعة الأولى عن دار الطليعة، بيروت سنة 1983، أما الطبعة الثانية عن منشورات عكاظ بالرباط سنة 1988. 6/الإبستمولوجيا التكوينية للعلوم .

- التعليم بين الثابت والمتغيرات (نداكوم للطباعة والنشر، الرباط، 1999)
- التوازن المختل : تأملات في نظام العالم (دار نشر المعرفة، الرباط، 2000)
- مكونات المغرب وسياسات (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001)
- لماذا أخفقت النهضة العربية ؟ (بالاشتراك مع احميدة النيفر) سنة 2002
- الإبستمولوجيا التكوينية في فلسفة العلوم، 2010

ومن مؤلفاته في الفلسفة :

كتاب جراءة الموقف الفلسفي:

الصادر بالدار البيضاء، بيروت في لبنان ، سنة 1999، وتناول فيه عدة قضايا منها شروط الحوار الفلسفي في المغرب والفكر الفلسفي في المغرب بين الأتباع والتأثر والتجديد، وجراءة الموقف الفلسفي، بالإضافة إلى المفاهيم الباشلارية بين إرجائيتها وحدودها، وكذلك الفلسفة والحوار¹

كتاب النظرية الفلسفية:

الذي كان بعنوان الفرعي دراسات في الفلسفة العربية، والصادرة لدار الطليعة للطباعة والنشر بيروت في طبعته الأولى سنة 1990 وتضمن ثمانية فصول، وهذا الكتاب كان جهد فكري يتساءل ويحلل على ضوء معطيات النتاج الفلسفي العربي والمغربي تحديدا.

¹ ملتقى اختفاء المحمدية، بالفكر محمد وقيدي، 20 يناير 2015، Assabah.ma/78598.html

كتاب الحوار فلسفي:

صدر بالدار توبقال للنشر في سنة 1985. وله أيضا مؤلفات في السياسة والاجتماع: البعد الديمقراطي، لماذا أخفقت النهضة العربية، التوازن المختل، بالإضافة إلى كتاب آخر بعنوان "مكونات المغرب وسياسته"¹.

3- وفاته

بعد صراع طويل مع المرض انتقل وقيدى إلى رحمة الله صباح يوم الجمعة 7 أغسطس أب لسنة 2020 ، هذا وبعد سنوات من الإسهام الفكري والأكاديمي على الساحة الثقافية العربية.²

¹ عبد الكريم بالحاج، وقفة مع وقيدى حول مشروعه الفكري بين الاستمولوجيا

والسيكولوجيا التكوينية، علم النفس ، الرباط المغرب www.arabpsynet.com/documents/docbeihah

<https://www.alaraby.co.uk> سليمان الحقيوي، أداب وأفكار - الرباط في بورتريه لأنس عوض (العربي الجديد)، محمد وقيدى، في عوائق

² <https://web.archive.org/web/20200807132521/https://2m.ma/ar/news-المفكر-المغربي-محمد-وقيدى-يرحل-إلى-دار-البقاء-20200807/>

المبحث الثاني: الجذور والمنطلقات الفكرية لمحمد وقيدى

1- محمد وقيدى وعلم الاجتماع

وهنا ننتقل إلى مساهمات وقيدى وبدوي في نقاشهما للفترات الانتقالية في مسار البحث الاجتماعي وعلاقته بالأيدولوجيا وبحثهما في مراحل التغير والتثوير في الإنتاج البحثي، وتمكن ملاحظة التطور الذي مرت به اهتمامات وقيدى ومروره من دراسة الأيدولوجيا في العلوم الاجتماعية إلى دراسة الإستمولوجيا وتحديدًا التكوينية للعلوم، والبحث في منطقة التخوم بين التخصصات المختلفة لفهم أفضل للتغيرات التي تدفع بتطور العلوم الاجتماعية في سياقات محددة، ولهذا يسد هو ثغرة مهمة في فهم الانتقال بين السوسيولوجيا والإبستمولوجيا، بينما يقدم بدوي منهجية إجرائية تجمع المجالين معاً¹.

وفي السياق النظري لتطور علم اجتماع العلم يورد بدوي أن الفضل يعزى لروبرت ميرتون في وضع الأفكار التأسيسية لهذا العلم إلا أن أفكاره تعرضت لنقد عنيف ضمن النقد العام للبنائية الوظيفية مع التأكيد على رفض رؤية ميرتون المثالية للحقل العلمي ونفيه الصراع ويمكن القول حسب بدوي إن بورديو كان من أبرز المساهمين في نقد ميرتون وتجاوزه والعبور بعلم اجتماع العلم مرحلة جديدة شكلت إسهامات توماس كون فيها ركيزة أساسية. وبفضل هذا المفهوم الذي تقوم عليه طروحات كون في كتابه الأساسي بنية الثورات العلمية تمكن كون كما يرى وقيدى من شرح وجهة نظره في تاريخ العلم، فراه عبارة عن تاريخ براديغمات متعاقبة مختلف واحدها عن الآخر اختلافا نوعيا، وليس العلم كما خاله الآخرون من مؤرخي العلوم وفلسفاتهما عملية تراكمية ممتدة لا يعترئها انقطاع، والبراديغم الذي وصفه بأنه نظرية علمية جديدة، عني به، وبكلام آخر، نظرة جديدة إلى الكون والطبيعة تقضي على نظرة سابقة، تماما كما يحصل في الثورات السياسية.

¹ عباد خالد عبد يحيى ، مساهمة في نقد الانشغال العربي بثنائية "المعرفي/الأيدولوجي": الحالة الفلسطينية مثلاً، برنامج الماجستير في علم الاجتماع، جامعة بيرزت، 2013، ص ص 35-36.

وبالعودة إلى تقديم وقيدى تحليل بياجيه يتضح كيف تعمل الأيديولوجيا كروية للعالم على دفع التأثير في العلم والتصورات التي يقيمها عن الظواهر التي يدرسها، أي أنها بتعبير آخر وإلى جانب البراديغم المجتمعي والمعرفي تشكل أرضية إبستمولوجية للبحث العلمي، وهنا تحديدا يلتقي بياجيه مع توماس كون وغاستون باشلار كذلك ويتقاطع الثلاثة؛ فوقيدى يرى أن بياجيه يتحدث عن صيغة قريبة تماما من العائق الإبستمولوجي كما تحدث عنه باشلار مع التأكيد على أن العائق الإبستمولوجي عند باشلار ينبثق عن الممارسة العلمية ذاتها وليس عائقا يفرض عليها من الخارج، وبلغة وقيدى فإن بياجيه يضيف الأيديولوجيا بوصفها عائقا ذا طبيعة مجتمعية ينفذ إلى داخل المعرفة ذاتها ليصبح مصدرا للعوائق الإبستمولوجية وهكذا يرى بياجيه أنه في كل فترة تاريخية وفي كل مجتمع يسود إطار معرفي معين يكون مصدرا لبراديغمات مجتمعية ومصدرا في الوقت ذاته لبراديغم معرفي جديد، وحالما يتأسس هذا البراديغم الجديد فإنه يصبح من الصعب الفصل بين ما هو مجتمعي وبين ما يعود إلى النسق المعرفي، فالبراديغم الجديد يبدأ بالتأثير كما لو كان أيديولوجيا تلعب دور الشرط بالنسبة لتطور العلم اللاحق، وتلعب هذه الأيديولوجيا دور العائق الإبستمولوجي الذي لا يسمح بأي تطور للعلم خارج الإطار المتواضع عليه، ولا تتم القطيعة مع الأيديولوجيا السائدة داخل المعرفة العلمية في وقت ما من تاريخها إلا بقيام ثورات علمية تكون شرطا للانتقال إلى نسق علمي جديد متميز عن سابقه¹.

¹ عباد خالد عبد يحيى ، مساهمة في نقد الانشغال العربي بثنائية "المعرفي/الأيديولوجي": الحالة الفلسطينية مثالا، برنامج الماجستير في علم الاجتماع، جامعة بيرزت، 2013، ص ص 35-36.

2- تأثر محمد وقيدى بغاستون باشلار :

1-2 نبذة عن حياة بغاستون باشلار

وُلِدَ غاستون لويس باشلار يوم 27 حزيران/ يونيو 1884، في بلدةٍ صغيرةٍ، تُسمّى بار. سور . أوب، بمنطقة شامبانيا الفرنسية. ترعرع في عائلة ذات ظروف اجتماعية متواضعة تعمل في صناعة الأحذية، وقضى طفولته وشبابه وسط الحقول والجدول.

درس في ثانوية مدينته، وفي سنّ الثامنة عشرة أصبح مُدرّساً في مدرسة سيزان، ثمّ في العشرين عمل كاتباً في مكتب البريد .

حصل على شهادة في الرياضيات عام 1912، وتابع دراسته إلى جانب عمله شارك في الحرب العالمية الأولى كجنديّ خيال.

2-2 إنجازات غاستون باشلار

درّس باشلار الفيزياء والكيمياء بمدرسة بار يور أوب حتى عام 1930، وكّرّس نفسه لدراسة الفلسفة ففي عام 1920 حصل على شهادة الفلسفة، وفي عام 1922 حصل على الماجستير ثم الدكتوراه عام 1927، وقدم أطروحة الدكتوراه بعنوان "Essai sur la connaissance approchée"، والتي نُشرت على الفور¹.

بعدها بدأ تدريس الفلسفة في جامعة ديجون. في وقتٍ لاحق أصبح أستاذ تاريخ فلسفة العلوم في جامعة السوربون المرموقة التي تركها سنة 1954 حين بلوغه سنّ التقاعد بعد أن شغل العديد من المناصب منها: سنة 1955 مديراً لمعهد تاريخ العلوم والتقنيّات وفي سنة 1960 حصل على وسام الشرف من رتبة فارس، وحصل في سنة 1961 على الجائزة الوطنية الكبرى للآداب.

دشّن بعمله طبيعة فكره والمكانة التي سيحتلّها على مستوى تطوّر الفلسفة المعاصرة. كتب باشلار في التاريخ وفلسفة العلوم أعمالاً مثل "Le Nouvel Esprit scientifique" عام 1934، و "LA Formation De L'Esprit Scientifique" عام 1938، وذلك بناءً على

¹ محمد هشام، تكوين مفهوم الممارسة الاستمولوجية عند باشلار، إفريقيا الشرق - المغرب، دط، 2006، ص12.

رؤيته لنظرية المعرفة التاريخية كنوعٍ من التحليل النفسي للعقل العلمي، أو بالأحرى العوامل النفسية في تطور العلوم.

ركّز باشلار على ضرورة القيام بنوعٍ من المراجعة النقدية لبعض المفاهيم التقليدية الموروثة من الفلسفة حول المعرفة، فعلى العالم أن يظلّ في حالة استعدادٍ دائمٍ لمراجعة مبادئه وأفكاره، لأنّه ليس هناك حقيقة مطلقة أو قانون علميٍّ مطلق. كما أنّ المعرفة العلمية تتميز بمجموعةٍ من الخصائص، لا يُمكن لتلك المفاهيم التقليدية استيعابها، ففي العلم لا نكون أمام تجريبيةٍ صرفةٍ، ولا أمام عقلانيةٍ صرفةٍ، ولا أمام تضادّ التجربة والعقل، بل نكون أمام علاقةٍ جدليةٍ، تحوّل الواقع تحويلاً نظرياً، أو أمام ممارسةٍ نظريةٍ لها علاقة بالمرحلة التاريخية التي يمرّ بها العلم، وبالمفاهيم الفلسفية والإيديولوجية السائدة، أي أننا نحوّل الواقع من واقعٍ ماديٍّ خامٍ إلى تصوّراتٍ أو موضوعاتٍ معرفيةٍ تتخذ صورة صيغٍ رياضيةٍ نظريةٍ. إذاً، لا يُمكن الفصل حسب باشلار بين ما هو تجريبيٌّ وما هو عقليٌّ إنّ المعرفة بطبيعتها تجريبيةٌ وعقليةٌ معاً¹.

لقد أصبح الموضوع الرئيس عند باشلار في الجزء الثاني من حياته، هو التخيل أو عمل المخيلة، بعد أن كان العقل، وأصبح يسعى إلى القيام بدراسةٍ فلسفيةٍ شاملةٍ للإبداع الشعري واستسلم لدافعٍ لا يقاوم للتواصل مع القوى التي تخلق المعرفة لا التي تُحصّلها، والمجال الوحيد الذي يأمل أن يرى فيه تلك القوى وهي تعمل، هو الشعر، لذلك كتب مجموعةً من الكتب في الجزء الثاني من حياته طبّق فيها منهجه هذا.

كان عمل باشلار مهماً في تشكيل أفكار العديد من المفكرين الفرنسيين من جيل الشباب، وعلى الأخص لويس ألنجر وميشيل فوكو.

¹ بدوي عبد الفتاح محمد، فلسفة العلوم، العلم ومستقبل الإنسان إلى أين، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، دط، 2007 ص 2 .

2-3 أهم مؤلفات

أهم مؤلفاته في مجال فلسفة العلوم هي:

- العقل العلمي الجديد / 1934.
- تكوين العقل العلمي / 1938.
- العقلانية والتطبيقية / 1948.
- المادية العقلانية / 1953.

وأغلبها ترجم إلى العربية وغيرها من الكتب والتي يقارب عددها ثلاثة عشر كتاباً، وقد برز كواحد من أهم وأشهر المتخصصين بفلسفة العلوم، حيث درس بعمق الوسائل التي يحصل بها الإنسان على المعرفة العلمية عن طريق العقل، ولكنه فاجأ الجميع عندما ظهر كتابه (التحليل النفسي للنار) حيث تحول تماماً من منهجه المعروف في فلسفة العلم إلى موضوع جديد حتى في مجال التحليل النفسي، حيث الإنسان هو ميدان التحليل النفسي للمادة، ربما من المفيد معرفة شيء عن ظاهرة باشلار قبل الدخول إلى هذا الموضوع¹.

2-5 إبستمولوجيا باشلار الجديدة مواكبة لتطور العلم

أنتج " غاستون باشلار " Gaston Bachelard 1962-1984 مفهوماً جديداً عن الاستمولوجيا لا يتعارض كلياً مع ما كان يوضع من تصورات تحت هذا اللفظ عند معظم الذين كتبوا حول "العلم" وحسب ولكنه يؤسس أيضاً كنتيجة لفعل التعارض ذلك حقلاً إشكالياً تأخذ فيه الهيئة العامة للخطاب الفلسفي حول العلوم والممارسة العلمية وجهها مغايراً لا عهد للفلسفة به².

فالإبستمولوجيا التي يمارسها " باشلار " تحدد لنفسها هدفاً أولياً أساسياً، تتمثل في أنها تقوم بتفكيك شامل لآليات اشتغال النص الفلسفي الكلاسيكي حيث يتضمن بالضرورة "فلسفة العلوم" ولقد نجم عن هذا التفكيك اكتشاف حاسم، وهو اكتشاف ما اجتهدت الفلسفة دوماً بعناد وإصرار، في إخفائه بشتى الطرق والوسائل.

¹ بدوي عبد الفتاح محمد: المرجع السابق، ص3.

² د. محمد هشام، تكوين مفهوم الممارسة الاستمولوجية عند باشلار، إفريقيا الشرق - المغرب، دط، 2006، ص 12.

هي فلسفة يراد لها أن تكون متكيفة مع التطورات الحاصلة في الفكر العلمي الجديد. وبما أن "باشلار" أراد أن تكون فلسفته مواكبة التطورات العلوم ، أتى بأبستمولوجيا جديدة تسير في ركب العلم الجديد، مبرزاً القيم الإستمولوجية للعلم مقيماً فلسفته المفتوحة التي تقول لا للفلسفات السابقة، وقام بتأسيس عقل علمي يدعو من خلاله إلى عقلانية مطبقة.

- إبراز القيم الإستمولوجية: يريد "باشلار" بالفلسفة التي يعدنا بها أن تكون مطابقة للعلوم المعاصرة حتى تتجاوز عدم المطابقة التي تبديها الفلسفات الجاهزة سواء لدى الفلاسفة أو العلماء إزاء العلوم وتتجاوز عدم القدرة التي تطبع تلك الفلسفات، وعدم قدرتها على استيعاب مظاهر الجدة في العلوم المعاصرة وإبراز قيمها الإستمولوجية إبرازاً مطابقاً .

استفاد "باشلار" كثيراً من الانجازات العلمية ففي سنة 1929 صدر كتابه " القيمة الاستقرائية للنظرية النسبية" يحاول فيه إبراز القيم المعرفية الإستمولوجية .

- العقلانية المطبقة : لقد اختلفت نظرة الفلاسفة للعقل منذ القدم، كل يراه حسب نظريته، فالسمة التي طبعت موقف الفلسفات التقليدية من "أفلاطون" (428-427 ق.م 347-348 ق.م) إلى "كانط" من العقل هي اعتبار هذا الأخير حاصلًا بصورة سابقة على التجربة، فهي تعتبره عقلاً نهائياً كامل البناء لا يخضع لأية علاقة جدلية مع المعارف، أما الحديث عن العقل عند "باشلار" ربطه دائماً بالثورة العلمية التي أنتجته والتي أنتجتها، فهو بناء متبادل بين العقل والتجربة حاصل عن طريق الجدل، فالعقل عند "باشلار" هو عقل جدلي يتكون تدريجياً ويتطور ويتأثر في بنيته بالأفكار العلمية¹.

فالعقل هو نتيجة من نتائج العلم، وهو إنتاج لاحق غايته الإفصاح عن المناهج العلمية إن العقل العلمي يمنعنا من تكوين رأي حول قضايا لا نفهمها، حول قضايا لا نحسن صياغتها بوضوح، قبل كل شيء لا بد من معرفة كيفية وضع وفهم في الحياة العملية فإن المشاكل لا تطرح ذاتياً ومن الواضح أن هذا المعنى للمشكلة هو الذي يعطي للعقل العلمي طابعه، فبالنسبة إلى العقل تعتبر كل معرفة جواباً على مشكلة، فإذا لم يكن ثمة "مشكلة" لا يمكن أن تكون ثمة معرفة علمية.

¹ زواوي يغورة ، مدخل إلى فلسفة العلوم، جامعة منتوري قسنطينة، دل، دس، ص 25

- **المرحلة الأولى:** تمثل الحالة لما قبل علمية وتشتمل في أن على الأزمنة الكلاسيكية القديمة وعصر النهضة والجهود المستجدة في السادس عشر والسابع عشر وحتى في القرن الثامن عشر.

- **المرحلة الثانية:** تمثل الحالة العلمية، التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر، وشملت القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

- **المرحلة الثالثة:** مرحلة العقل العلمي الجديد ابتداء من عام 1905 حتى بدأت نظرية اينشتين في النسبية تبدل كثيرا من المفاهيم الأولية التي كان يسود الاعتقاد أنها ثابتة.

- **فلسفة الرفض:** نادي "فريدينان كونزت" Ferdinand Gonsth بالفلسفة المفتوحة" إذ عرفت فلسفته "الايدونية" الفلسفة التي تقوم على أساس ضرورة إخضاع المبادئ والنتائج للتجربة، مما يجعلها قابلة للمراجعة والتعديل بكيفية مستمرة، وهي تقوم على مبدئين رئيسيين: أ- أن كل حقيقة هي حقيقة مجملية، وكل قضية لا بد أن تقبل المراجعة.

ب- المعرفة الموضوعية والديالكتيك بينان بواسطة إعادة تنظيم متواصلة، تبدأ من حقل التجربة لتصل إلى إعادة تفسير المعطيات المباشرة، وهذا يعني أن الفكر يجب أن يبقى دوما مفتوحا مستعدا لتقبل أية فكرة جديدة وأية ظاهرة تتناقض مع الأفكار المسلم بها من قبل.

3- القطيعة الاستمولوجية عند غاستون باشلار

قبل التحدث عن القطيعة الاستمولوجية يجب ذكر العوائق الاستمولوجية التي تعترض سبيل العلم ، فإن وجودها يستدعي ضرورة قطيعة استمولوجية اللاهتداء نحو الصواب.

1- **العوائق الاستمولوجية:** مفهوم العائق ويشق لغة من عائق عاقه يعوقه عوقا عوقا وإعاقة، إعتاقه اعتياقا عن هذا صرفه وثبطه وأخرى ، عن (تعوق تثبط وتأخر "تعوق فلان" صفه عما أراد وحبسه عنه¹ .

وأما اصطلاحا فمصطلح العائق يعني منعه وشغله عن عوائق الدهر وشواغله وإحداثه والعائق في اصطلاحنا ما يعوق الفكر أو الإرادة من شواغل داخلية أو خارجية أما إذا رجعنا

¹ زواوي يغورة ، المرجع السابق، ص 26.

إلى مفهوم العائق الإستمولوجي فيقصد به العائق الذي يعترض سبيل العلم فيعرقل تقدمه ويعطل سيره.

-القطيعة الإستمولوجيا: يمكن تعريف الإستمولوجيا لغة قطع قطعاً ومقطعاً وتقطيعاً وتقطعاً الشيء أي جزره أبانه، فصله عن حقه منعه أما اصطلاحاً القطيعة تعني الهجران لا الوظيفة ما يقطع من ارض أي ترك الصلة.

القطيعة الإستمولوجية هي القفزات الكيفية في تطور العلوم ومن نتائجها تجاوز العوائق الإستمولوجية القائمة فالباحث العلمي بالنسبة لـ " باشلار يجب أن يتخلص من كل ما يمثل العائق الإستمولوجي الداخلي وذلك بإخضاع نفسه إلى نوع من التطهير الذي يدفع بالبحث إلى الاقتراب من الحقيقة، ومن البديهي أن العائق يطرح بإلحاح مشاكل المعرفة العلمية وان تجاوزه يفضي إلى القطيعة التي هي خطوة نحو الهدف المنشود.

-القطيعة بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية:

تقوم المعرفة العلمية، بتجاوز العوائق الإستمولوجية ، إلا أن هذا التجاوز يتخذ في تفكير " باشلار" طابع الانفصال التام بين العلم كعلم وبين كل مسابقات الفكر الطبيعية، ويتقدم هذا الانفصال" على أنه الحد الفاصل بين نوعين من المعرفة، المعرفة العامة المشتركة والمعرفة العلمية، انفصال يعتبره " باشلار بمثابة مصادرة أساسية بالنسبة للتفكير الإستمولوجي. فالمعرفة العلمية تعتمد القياس، أما المعرفة العامة الحسية فيمكن الحصول عليها بواسطة الحواس والعقل والخبرة اليومية¹.

-القطيعة الاستمولوجية في العلم ذاته :

إذا كان باشلار" قد تحدث عن القطيعة الاستمولوجية بين المعرفة العلمية والمعرفة العامة فإنه يبين أيضاً قطيعة من نوع آخر، وهي القطيعة بين الفكر العلمي في حد ذاته فالقطيعة بين الفكر العلمي، هي قطيعة داخلية تقع ضمن صيرورة الفكر العلمي ذاته، أي هناك نظريات جديدة، تحقق طفرات نوعية في مسار الفكر العلمي، لا يمكن فهمها على أنها استمرار أو تطوير العلم السابق عليها ومن أهم النظريات التي تنطبق عليها هذه الثورية

¹ جميل صليبا، المعجم الفلسفي ج2 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، 1982 ، ص33

الهندسات اللاقليدية في مجال العلوم الرياضية و"الميكانيكا النسبية"، و "ميكانيكا الكوانتا" في العلوم الفيزيائية وحينما تكون القطيعة الإستمولوجية مع كل فرضية ونظرية تعلن عن قيام فكر علمي أكثر شمولاً.¹

4- محمد وقيدى وباشلار

حاول الوقيدى الخروج بالأبستمولوجيا من مجال العلم الطبيعي وخاصة التجريبي ليشمل مجال العلوم الإنسانية، فكما طبق باشلار القطيعة الإستمولوجية في العلوم الوصفية حاول وقيدى ماحككة هذه التجربة على العلوم الإنسانية، وركز على علم الاجتماع، باعتبار أنه العلم الأكثر اعتماداً على علم الإحصاء والقياس والمنهج التجريبي مقارنة بعلم النفس وعلم التاريخ وتتم الاستعانة هنا بمحاولة علماء اجتماع فهم واقع علم الاجتماع بالاستعانة بالتحليل الباشلاري لتاريخ العلوم، وتحديد المحاولة التي قام بها مؤلفو كتاب "مهنة عالم الاجتماع" كما عرضها محمد وقيدى²

والتساؤل الأهم في ضوء التحليل الباشلاري - كما يقاربه وقيدى - يكون حول ما يمنع العلوم الاجتماعية من أن تكون علماً، ومؤلفو مهنة عالم الاجتماع يعبرون عن هذه العوائق على أنها كل ما يبقي الفكر سجيناً لتصورات المعرفة العامة ويمنعه من بلوغ معرفة موضوعية بالظواهر التي يدرسها، وبالتالي فإن التداخل بين المعرفة العلمية والمعرفة العامة هو المصدر الأول للعوائق الإستمولوجية، وعند الحديث عن المعرفة العامة فإننا بالضرورة نكون على صلة بالأيديولوجيا كتصور للكون ونظرة للحياة.³

وهذا على صلة حسب وقيدى بالصورة التي يتحدث عنها باشلار حول "الرأي"، فالعلم يعارض الرأي لأنه ناشئ عن منفعة ما تعيق المعرفة، وبالتالي حسب باشلار فإن الرأي هو أول عائق إستمولوجي ينبغي تجاوزه، ولذلك يرى باشلار أن المعرفة العلمية تتأسس بهدم

¹ مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع القاهرة، دط ، 2007 ، ص1

² محمد وقيدى، العلوم الإنسانية والأيديولوجيا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011، ص 175.

³ رشيد مسعود، الأيديولوجيا علم الأفكار، الموسوعة الفلسفية العربية، مجلد الأول، معهد الانماء العربي، بيروت، ص

المعرفة العامة، وضمن هذا العائق الأول ولتجنب النقص في التحليل الباشلاري تبرز قيمة البحث في البراديجم الاجتماعي الذي تنتج ضمنه البحوث، وذلك لأن الحديث عن التداخل بين المعرفة العلمية والمعرفة العامة والرأي والعلم وتسرب المفاهيم غير العلمية إلى تحليل عالم الاجتماعي إنما ينشأ إما عن تصور عام للكون يسود الحقبة أو عن شروط مجتمعية تدفع نحو تبني رأي بعينه والتعبير عن منفعة ما بهذا التبني، وفي هذا المستوى يمكن الوصول إلى تداخل ما مع الأيديولوجيا كقناع، فحين تستخدم المفاهيم والمعرفة العامة لتحقيق منافع يمكن اعتبار المعرفة العامة تلك أو المفاهيم ذات الوظيفة المجتمعية كأيديولوجيا توظف لتحقيق مكاسب في المجال السياسي والاجتماعي.

أما العائق الإستمولوجي الثاني فهو مرتبط بالتعبير عن نتائج البحث الاجتماعي، وهنا يبرز وجه آخر للتداخل بين المعرفة العلمية والمعرفة العامة، فإلى جانب تداخل المفاهيم العلمية والمفاهيم العامة هنالك تداخل على مستوى اللغة؛ فغياب اليقظة الإستمولوجية قد تتسرب المفاهيم العامة إلى عالم الاجتماع عن طريق اللغة، فيستخدم مفردات اللغة العامة للتعبير بها كمصطلحات علمية، وبالتالي فإن القطيعة الإستمولوجية بين المعرفة الاجتماعية التلقائية والمعرفة الاجتماعية العلمية لن تتحقق إلا بقدر ابتعاد لغة علم الاجتماع عن اللغة العامة، وبقدر صياغة العالم لمفاهيم علمية دقيقة يعبر بها عن النتائج التي توصل إليها ويصوغ بها فرضياته الجديدة، ويعزى نفاذ اللغة العامة إلى تعبیر عالم الاجتماع إلى الألفة التي تنشأ بين العالم والمحيط المجتمعي الذي يكون موضوع دراسته، فتتخذ المفاهيم الشائعة إلى فكره، وبالضرورة نتلمس هنا علاقة الأيديولوجيا كأفق ذهني لفئة أو حقبة بالبحث الاجتماعي وفكر العالم، ومن المهم الإشارة هنا إلى أن الحديث يدور على مستوى غير واع من قبل عالم الاجتماع¹.

¹ محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والأيديولوجيا، المصدر السابق، ص 189.

وحسب وقيدى فحتى يكتمل التصور الباشلاري وتطبيقه لدى مؤلفي مهنة عالم الاجتماع وتحقق القطيعة الإستمولوجية كان لا بد من وجود النظرية، فكل التقنيات السابقة ليست كافية لإقصاء العوائق الإستمولوجية التي تضعها المعرفة الاجتماعية التلقائية أمام المعرفة الاجتماعية العلمية، وإن الوسيلة الحقيقية التي يمكن أن تعمل على إقصاء كل تلك العوائق هي وجود نظرية حول ما هو مجتمعي، فالميزة الإستمولوجية للنظرية أنها تقدم جملة من المفاهيم المتناسقة التي تقي العالم من خطر الوقوع في كل حين في أسر المفاهيم العامة¹ وبالتالي فإن نظرية حول ما هو مجتمعي هي ضرورة إستمولوجية، فكل التقنيات السابقة إنما تكتسبها قيمتها العلمية بوجود النظرية، ويمكن القول إن العلماء الذين يطبقون التقنيات السابقة دون الوعي بأهمية النظرية يسقطون ضحية للواقع موضوع البحث فيأخذون بتأويلاته للظاهرة بدل من أن يسيروا في اتجاه البحث عن تفسير علمي، وهنا يرد التنبيه من وقيدى أن ما وجد في العلوم الاجتماعية غالبا هو تقليد نظري ويعني وجود نظريات مختلفة لا نظرية واحدة يمكن أن تسمح بقيام الملاحظات والتجارب ضمنها، ولا نظرية واحدة يمكن أن تتحدد النتائج التي يتم بلوغها، ويرى وقيدى إن وجود هذا التقليد النظري في العلوم الإنسانية يدل على أنها لاتزال خاضعة للتأثير المباشر للأيديولوجيا، وأن مسألة بناء نظرية حول ما هو مجتمعي ليست موضع بحث علمي فحسب، بل هي أيضا موضع بحث أيديولوجي².

يلفت وقيدى الانتباه إلى أن نقل التصور الباشلاري دون نقده جعل مؤلفي مهنة عالم الاجتماع يقتصر على توضيح أهمية النظرية كوسيلة فعالة لدفع كل الخطوات العلمية الأخرى إلى السير نحو تحقيق القطيعة الإستمولوجية مع المعرفة الاجتماعية التقليدية، والواقع أن النظرية يمكن أن تلعب دور العائق الإستمولوجي، وذلك حين تضع مجموعة من المفاهيم المتناسكة والمنغلقة، وحينها يتجه سعي العالم دوما إلى أن يحافظ في عمله وهو يعمل بهدي من النظرية على تحقيق تماسكها أكثر مما سعى إلى امتحان فعاليتها، هنا تمكن

¹ هنري إيكين، ترجمة فؤاد زكرياء، عصر الأيديولوجية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963، ص 63

² أيوب، سمير. تأثيرات الأيديولوجيا في علم الاجتماع. بيروت: معهد الإنماء العربي، 1983، ص 126.

الإشارة إلى سيطرة النظرية الماركسية على البحث الاجتماعي الفلسطيني في مرحلة السبعينيات وأوائل الثمانينيات كما يؤكد الباحثون الاجتماعيون الفاعلون في تلك المرحلة، مع شيوع نظريات المدارس الفكرية العالمثلية، واعتماد نظريات التبعية والتطور اللامتكافئ في الدراسات التنموية التي انتشرت في الثمانينيات، وهذا يرجع لرواج هذه النظريات في بلدان "العالم الثالث" ونتيجة لانتماء الباحثين لتيارات يسارية وتتلمذهم في الجامعات على هذه النظريات تحديداً، وهذا يعكس بشكل جلي أن اعتماد نظرية أو إطار تحليلي في دراسة ظاهرة ما كان ناجماً عن اعتبارات عديدة ليست بالضرورة معرفية علمية أو متصلة بالواقع وتحاول فهمه، ولا يمكن فصل هذه التوجهات النظرية عن التوجهات السياسية لدى الباحثين مع الإشارة الواضحة إلى أن البحث الاجتماعي كان ينحو منحى شمولياً عاماً ويحاول الوصول إلى إجابات عامة، وبالكاد وجدت دراسات متخصصة وجزئية، بلغة أخرى كان البحث الاجتماعي يجري على مستوى الماكرو اجتماعياً وليس المايكرو، وهذا ما تغير في مراحل لاحقة شهدت انحساراً في تطبيق النظرية الماركسية تحديداً.



الفصل الثالث

علاقة الأيديولوجيا بالعلوم

الإنسانية من وجهة نظر

محمد وقيدي



المبحث الأول : العلوم الإنسانية ومنهجها عند محمد وقيدى

1- العلوم الإنسانية عند محمد وقيدى

لقد اقترنت العلوم الإنسانية منذ بداية ظهورها بإشكاليات إبستمولوجية وميتودولوجية عويصة ربطت الاعتراف بعملياتها وتحديد وضعيتها الابستمولوجيا ضمن منظومة المعارف المعاصرة.¹

والعلوم الإنسانية تتوجه في الواقع إلى الانسان من حيث هو كائن يحيا ينطق، وينتج ومن حيث هو إنسان قادر على تمثيل وإنتاج معرفة حول الحياة واللغة والعمل، أي حول ذاته، (...) فكان ظهور العلوم الإنسانية هو حدث في نسق المعرفة، (...) ولم تظهر إلا بظهور الانسان كموضوع للمعرفة، وما كان للإنسان أن يظهر ويتخذ موضوعا للمعرفة لولا ظهور فضاءات الاقتصاد والحياة واللغة التي قاربت في أبعاده التجريبية ككائن حي ناطق، وصانع أشياء.²

حيث ظهر أن الدراسات الإنسانية قد شقت لنفسها طريق العلم بالمعنى الدقيق، وقطعت منه شوطا كبيرا³ وأصبحت المعرفة الإنسانية فعالة بشكل جوهري.⁴ كما يفضل بعض المفكرين التعبير : (علوم الانسان على أن يقول العلوم الإنسانية، ...) والسبب في تفضيلهم القول علوم الانسان بدلا من (العلوم الإنسانية)، هو ان جميع العلوم الإنسانية حتى تلك التي لا تتخذ من الانسان موضوعا لها وليست التسمية الرسمية وهي (العلوم الإنسانية) للأسف إلا تعبيراً عن هذا المرض الذي ألم بلغتنا وهو الميل إلى اشتقاق الصفات وكثرة

¹ عمر التاور ، منزلة العلوم الإنسانية المركز التربوي الجهوي، ص 97

² لوسيان غولدمان، ترجمة يوسف الأنطكي، العلوم الإنسانية والفلسفة، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، السنة 1996، ص

³ رشيدة عبة واخرين ، ابستمولوجيا العلوم الإنسانية، مرجع سابق، ص 151

⁴ جان بياجيه، ترجمة السيد نقا، الابستمولوجيا التكوينية ، دار التكوين ، 2004، ص 46.

استخدامها فجرت على الألسنة تعبيرات من قبل النزاع البترولي والسياسة الطرقية الخ.¹ إذن يمكن القول بأن المقصود بالعلوم الإنسانية أن الانسان كائن ناطق وعامل كما كان يسعى ويتبدى في تراث النزعة الإنسانية فهي تسعى إلى بناء معرفة الانسان على شاكلة المعرفة الرياضية والتجريبية .

وهي من حيث هي علوم بالمعنى الواسع للكلمة، تقدم للأبستمولوجيا أحد موضوعاتها ولذا فإن علاقة الابستمولوجيا بهذه العلوم هي، من الناحية المبدئية ، شبيه بعلاقتها بالعلوم الرياضية أو بعلوم الطبيعية والابستمولوجيا تقع بالنسبة إليها إلى مستوى أعلى تهيمن منه عليها لان الابستمولوجيا العامة التي تتناول جملة من العلوم، لا يبدو "أنها تنتمي إلى العلوم الإنسانية، لهذا نجد بعض الدراسات قد أسست لتقليد نقدي يرمي مواطن الاختلاف بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، ويرد المشاكل الإبستمولوجية للعلوم الإنسانية إلى ما تتسم به من تداخل بين الذاتي والموضوع، لأن أثرت بين المفكرين الكثير من التساؤلات حول إمكانية قيام علوم إنسانية، و بالأحرى حول إمكانية خضوع الظواهر الإنسانية لمنهاج تجريبي تستقي منه حقائق لها من صدق واليقين ما لحقائق العلوم الطبيعية .²

2- بعض اشكالات النشأة في تاريخ العلوم الإنسانية (الفصل 2)

ذكر محمد وقيد فى كتابه الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية فى الفصل الثانى من الكتاب استمرت نشأة العلوم الإنسانية زمنا طويلا توفرت فيه بالتدرج الشروط المعرفية الموضوعية التى كانت تقتضيها تلك النشأة. نرى أن استقصاء شروط النشأة فى تاريخ العلوم الإنسانية وتتبع نموها يساعدنا على إلقاء الضوء على العديد من المشكلات الإبستمولوجية لهذه العلوم. لن نتابع تحقق تلك الشروط فى صيغها العامة من حيث هى شروط لنشأة مجال معرفي كامل يتعلق بالإنسان كموضوع للمعرفة ويحتوي على علوم مختلفة يتعلق كل واحد منها بالإنسان فى جانب من جوانب فعاليته.³

¹ روبرير بلانشيه ، ترجمة حسن عبد الحميد، نظرية المعرفة العلمية (الإبستمولوجيا)، مرجع سابق، ص 107، ص 108.

² عمر التاور ، منزلة العلوم الإنسانية، مرجع سابق، ص 97

³ محمد وقيدى، الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية، المصدر السابق، ص 83 .

- ميلاد العلوم الإنسانية تثوير لنسق المعارف الإنسانية. وهذا لأنه بنقل الإنسان من كونه ذاتا منتجة للمعرفة، إلى ذات، هي بالإضافة إلى ذلك، موضوع للمعرفة في تصنيف أوغست كونت للعلوم نجد تعبيراً عن الوعي بهذا التثوير الإستمولوجي. لقد أصبح الإنسان، ضمن الاهتمام العملي الجديد، جزءاً من الطبيعة، وعلم الاجتماع في تصنيف أوغست كونت هو الإشارة الواضحة إلى هذا الاعتبار. بنشأة العلوم الإنسانية لم يعد هنالك تعارض بين الإنسان والطبيعة، بل أصبح هنالك استمرار، فقد كان الإنسان قبل نشأة العلوم الإنسانية خارج النطاق الإستمولوجية للمعرفة، وأصبح مع بداية نشأتها، وبالتدريج، داخل هذا النطاق. إنه إذن إنسان جديد هذا الذي يكون موضوع للعلوم الإنسانية، ولم يكن من الممكن أن ينبثق هذا الإنسان الجديد دون تخطي عديد من العوائق الإستمولوجية، أي دون تجاوز كل الاعتراضات التي كانت تقدم ضداً على اعتبار الإنسان موضوعاً يمكن أن تتناوله معرفة علمية. بقدر ما يكون هنالك اعتبار لحقيقة ما من حيث هي حقيقة

- لم يكن من الممكن أن ينتقل الإنسان من اعتبار ذاته حقيقة أنطولوجية تسمو فوق كل معرفة علمية، إلى النظر إلى ذاته من حيث هو موضوع ممكن للمعرفة العلمية، دون انبثاق الوعي بالعوائق الإستمولوجية التي كانت تعوق هذا الانتقال، ذلك أن لحظة الوعي بالعوائق الإستمولوجية التي تبقى معرفة ما في حدود الفكر ما قبل العلمي، خطوة أساسية من أجل تحقيق قطيعة إستمولوجية ترفع تلك المعرفة إلى درجة المعرفة العلمية. ولم يقع هذا الوعي إلا انطلاقاً من العصور الحديثة، وهذا لأنه كان ينبغي قبل هذا تجاوز عدد من العوائق التي تتعلق بمعرفة موضوعات أخرى، لكي يقع تمثل العوائق الإستمولوجية التي تهتم معرفة الإنسان.¹

وفي نظر محمد وقيدى فإن أول هذه العوائق الإستمولوجية هو أن المعرفة بالإنسان كانت توجد ضمن كل كانت تمتزج فيه كل المعارف، بحيث كانت نفس الفئة من المفكرين هي التي تنتج المعارف المتعلقة بجميع الميادين التي نعرفها اليوم متمايز، حقاً، إن هذه الحالة من الخلط بين المعارف قد كانت، كلما يؤكد ذلك كونت، ضرورة موضوعية لأنه لم يكن من الممكن أن تتحقق منذ بداية السعي الإنساني إلى المعرفة كل الشروط التي تدفع

¹ المصدر نفسه، ص 83 ومابعداها

إلى التفكير في إقامة ميادين معرفية متميزة يختص كل منها بدراسة موضوع معين. ولكن حالة الخلط هذه، مع ضرورتها، هي التي منعت المعرفة بصفة عامة من أن تنمو نموا كيميا سريعا بصدد جميع الموضوعات الممكنة للمعرفة.

- ولكن هل كانت كل العوائق المعرفية التي كانت تعوق قيام العلوم الإنسانية تتلخص في هذا الشرط الذي ذكرناه، أي في وجود المعرفة بالظواهر الإنسانية ممتزجة بالمعارف الأخرى ضمن خلط عام لم يكن يتضمن اختصاص؟

نعتقد أن صلاحية هذا الشرط المعرفي لا ينبغي أن تؤدي بنا إلى إغفال شروط معرفية أخرى لنعد هنا إلى حقيقة سلف لنا ذكرها، وهي أن المعرفة الإنسانية تتقدم في أن تكون معرفة علمية بموضوعها كلما تجاوزت الاعتبارات التي تجعل من ذلك الموضوع موضوعا أنطولوجيا يتصف بالإطلاق ويسمو على كل معرفة علمية. ولقد كان الإنسان في العصور السابقة على بداية المحاولات لإقامة العلوم الإنسانية حقيقة أنطولوجية بالنسبة لكل معرفة علمية تريد أن تتناوله كموضوع لها. ولذلك كان قيام العلوم الإنسانية غير ممكن في كل تلك العصور، لقد ظلت النظرة إلى الإنسان في خلال هذه العصور محاطة بجملة من الاعتبارات الميتافيزيقية واللاهوتية التي كانت تعوق قيام كل معرفة علمية بالإنسان.¹

هكذا مثلا، فإن العصر اليوناني لم يكن مهيبا، موضوعيا، لكي يقوم به مجال معرفي هو الذي ندعوه اليوم بالعلوم الإنسانية. ذلك لأن هيمنة التفكير الميتافيزيقي، الذي كان الإطار الذي فكر ضمنه الفلاسفة اليونانيون في الإنسان وفي غيره من موضوعات المعرفة، قد عاق كل تقدم في المعرفة العلمية بالإنسان. هذا فضلا عن كون ذلك التفكير الميتافيزيقي في الحضارة اليونانية القديمة، لم يستطع أن يتحرر بصورة كاملة من أثر النظرة الأسطورية إلى العالم والإنسان.

- لم يكن بإمكان المعرفة العلمية بظواهر الإنسان أن تميز موضوعها، دفعة واحدة عن موضوعات المعرفة الأخرى، كما لم يكن بإمكانها أن تصل، دفعة واحدة، إلى تخليص موضوعها من كل الاعتبارات الأسطورية والميتافيزيقية واللاهوتية التي كانت تهيمن على النظرة إلى هذا الموضوع.

¹ المصدر نفسه، ص 83 وما بعدها

إذا صح لنا أن نعتبر نشأة العلوم الإنسانية ثورة معرفية في تاريخ الفكر الإنساني فإن ذلك لا يكون إلا مرفوقا باعتبارين. فأولا لقد تم بصورة تدريجية نهى الشروط اللازمة لقيام هذه الثورة المعرفية. وثانيا إن الشروط المتعلقة بقيام هذه الثورة المعرفية لم تكن تتعلق بمجال العلوم الإنسانية وحده، بل كانت تتعلق أيضا بتحقيق قطيعات إبستمولوجية في ميادين معرفية أخرى، بتعبير آخر إننا لا ينبغي أن نستخدم مفهوم القطيعة الإبستمولوجية للتعبير عن نشأة العلوم الإنسانية في صيغة المفرد المطلق، وكأن الفكر الإنساني قد انتقل ضمن المجال، وبصورة منعزلة، من مرحلته ما قبل العلمية إلى مرحلته العلمية، دون حاجة إلى تطور حاصل في ميادين معرفية أخرى. إن قيام الروح العلمية في ميادين أخرى غير العلوم الإنسانية، كان شرطا معرفيا ضروريا من أجل قيام هذه العلوم. وهذا بالنظر إلى طبيعة الظواهر التي تتناولها العلوم الإنسانية بالدراسة، وإلى توقف حدوث هذه الظواهر على عوامل متشابكة منها ما يرجع إلى دراسات تقوم بها علوم أخرى

- العلوم الإنسانية كميدان معرفي لا تنشأ مستقلة عن التطور العام للمعرفة، وأن العوامل التي تسهم في نشأتها لا تتعلق بها كشروط تخصها كمجال معرفي مستقل. فالتطور الذي عرفته ميادين معرفية أخرى قد ساهم بصورة غير مباشرة في التمهيد لظهور العوامل التي ستسهم بصورة مباشرة في نشأة العلوم الإنسانية، فلقد كان من الضروري أن يقع التقدم في المنهج العلمي بصفة عامة لكي يوجد ذلك الوعي بضرورة إلحاق دراسة الظواهر الإنسانية بهذا التقدم المنهجي، ولذلك فإننا، من هذه الناحية، نعتبر أن جميع العلماء الذين ساهموا في إنشاء قواعد المنهج العلمي وإرساء هذه القواعد، ولو كان ذلك خارج مجال العلوم الإنسانية، قد ساهموا بصورة غير مباشرة في خلق الوعي بضرورة تأسيس هذه العلوم كمجال معرفي جديد¹. ولهذا السبب ذاته أيضا قلنا بأن الفلاسفة العقلانيين، من أمثال ديكارت، والفلاسفة التجريبيين، من أمثال لوك، بطرحهم المسألة المعرفة، وبحثهم في قدرة الفكر البشري على المعرفة وعن مصدر الأفكار لدى الإنسان، قد ساهموا في دعم الاهتمام الذي سيؤدي إلى نشأة علم إنساني بعينه هو علم النفس، وطبقا لهذه الاعتبارات ذاتها قلنا أيضا بأن العلوم البيولوجية والفيزيولوجية والطبية التي أدى تقدمها إلى نفاذ الآلة إلى جسم الإنسان، قد كانت مقدمة إلى نفاذ المعرفة العلمية بصفة عامة إلى الإنسان بحيث أحواله إلى موضوع من

¹ المصدر نفسه، ص 83 وما بعدها

موضوعاتها، وهناك معرفة تعتبر نشأتها وتطورها، وفي الوقت ذاته، نشأة وتطورا لعلم من العلوم الإنسانية، وبروزا لواحد من الشروط التي تسهم في نشأة تلك العلوم. وهذه المعرفة هي المعرفة التاريخية، غير أن هنالك نتيجة أخرى ينبغي مراعاتها، وهي أن وجود نموذج منهجي سابق بالنسبة للعلوم الإنسانية قد كان بالنسبة إليها عاملا من العوامل التي حالت دون هذه العلوم وتبين الصفة الخاصة لعقلانية الظواهر التي هي موضوع دراستها، وبالتالي لتبين خصوصياتها كعلوم من حيث طبيعة الموضوع الذي تدرسه ومن حيث خصوصية تطبيق خطوات المنهج العلمي في دراسة هذا الموضوع. ومن جهة أخرى، فإن جميع الاعتراضات التي كانت تقوم وتتجدد ضدا على العلوم الإنسانية قد كان مصدرها هذا النموذج المنهجي. فحتى الاتجاهات الفلسفية المثالية كانت تلجأ إلى اعتبار العلوم الفيزيائية نموذجا منهجيا من أجل أن تقاس حال العلوم الإنسانية وتعرض بناء على ذلك على إمكان قيام هذه العلوم كعلوم..

تلك إذن أعم الشروط التي ساهمت في نشأة العلوم الإنسانية، وأعم الإشكالات التي رافقت هذه النشأة، ومن الواضح أن الدراسة المفصلة لتاريخ كل علم من العلوم الإنسانية على حدة يمكن أن تمنحها الفرصة لرؤية تلك الشروط والإشكالات في صور أدق لها وأكثر تفصيلا.¹

¹ المصدر نفسه، ص 83 وما بعدها

المبحث الثاني: الأيديولوجية كعائق في تقدم العلوم الإنسانية

1- العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية عند محمد وقيدي

في بحثه ضمن العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية يولي الباحث المغربي محمد وقيدي اهتماما كبيرا للعلاقة بين علم الاجتماع والإبستمولوجيا التكوينية لتكون المعارف وتطورها بوصفهما مجالين متداخلين أيما تداخل، ومن هذا المدخل اهتم وقيدي بطروحات جان بياجيه وعربها، وفي معرض توضيح وقيدي لرؤية جان بياجيه لإبستمولوجيا علم الاجتماع يشير إلى إن علم الاجتماع كعلم بالظواهر المجتمعية يتضمن دراسة تطور الإنتاج الاجتماعي للمعارف وشروطه، فيساهم بذلك في دراسة شروط تكون المعرفة بما أن من بين تلك الشروط ما هو مجتمعي، وهذا ما يدعو بياجيه بالدراسة الاجتماعية لتكون المعارف والدراسة التكوينية للمعرفة وهي تبحث في الجذور الأولى للمعارف والبنىات، تستفيد من التفسير الاجتماعي في الحدود التي تمكن بفضلها من التعرف على معطيات موضوعية تتعلق بالمكونات المجتمعية للمعرفة، والدراسة الاجتماعية للمعارف تمكن من الاطلاع على معطيات موضوعية تتعلق بعلاقة تكون المعارف عند الذات العارفة بمحيطها المجتمعي، وهذا يتعلق بمعارف راهنة نحلل علاقتها بشروطها المجتمعية أو كان متعلقا بمعارف ماضية نرجع في تحليلها إلى علاقتها بالشروط المجتمعية التي رافقتها¹.

ويعرض وقيدي للأفكار المؤسسة لدى بياجيه وتحديدًا تناوله لتكون المعارف لدى الطفل وهذا مجال إسهامه الرئيس وهو ما قاد إلى إنتاجه العلمي في الإبستمولوجيا التكوينية، ويوضح بياجيه كيف يؤثر المحيط المجتمعي تكوين المعارف لدى الطفل وتظهر الموضوعات في سياقات تمنحها دلالة، ويظهر هذا بشكل أساس مع ظهور اللغة والوظيفة الرمزية من خلال تراجع التواصل المباشر مع الموضوعات ويستعاض عنه بتجربة يؤثرها سياق الدلالات التي يمنحها إياه المحيط المجتمعي، وهذا ما يربطه شارح الإبستمولوجية التكوينية للعلوم عند بياجيه وناقلا إلى العربية محمد وقيدي بعلم اجتماع المعرفة وفيه ربط للشروط المجتمعية والمعرفة، ولا يتوقف بياجيه كما يشرح إسهاماته وقيدي عند هذا الحد العام من إثبات علاقة

¹ محمد وقيدي، الإبستمولوجيا التكوينية للعلوم عند جان بياجيه، دار البيضاء بالمغرب، 2007، ص 256.

المعرفة بالشروط المجتمعية، بل يذهب أيضا إلى البحث في علاقة تطور المعرفة العلمية عبر تاريخها بشروطها المجتمعية.

ويعقب وقيدي بأنه مما لا شك فيه أن توجه العلم نحو البحث في بعض القضايا الخاصة سواء كان ذلك عن طريق الاهتمام الفردي بهذه القضايا أو عن طريق العمل ضمن جماعة يجعل من التركيز حولها سبيلا لتطور العلم في مجالها، غير أن العوامل المؤثرة في ذلك التوجه لا تكون معرفية وحسب، بل هنالك عوامل متنوعة تلعب دورها في وجوده، وهي التي تفسر لنا في مجموعها اهتمام العلم ببعض القضايا دون غيرها، ومن بين هذه العوامل المتنوعة تلك التي تعود إلى الشروط العامة للمجتمع وإلى المطالب التي تكون له في فترة معينة من تاريخه¹.

ولا بد هنا قبل المضي في استيفاء تصور وقيدي المبني بشكل أساسي على طروحات بياجي من التذكير بأن النقاش يدور بشكل أساسي حول العلوم بمعناها العام والتدليل على الاستنتاجات يتم بطرح أمثلة من العلم الطبيعي وهذا يأتي في باب القول ضمنا إن ما يجري على العلم الطبيعي مع الموضوعية والانفصال عن البنية الاجتماعية؛ يجري بصورة أوضح وأجلى في العلوم الاجتماعية المتصلة بالبنية الاجتماعية وتتحرك معها، وفي سياق أعم مع المعرفة بمعناها العام، وإن لم ترد هذه الإشارة فإنها مفهومة ضمنا، وهذا الأسلوب من البرهنة على صحة الافتراضات سائد في البحث الإبستمولوجي، فكثير من الباحثين في فلسفة العلوم مثلا يبرهنون على صحة فرضياتهم في حقل العلم الطبيعي خاصة إن كانت على صلة بتوضيح الارتباط بالبراديغم السائد أو رفضه أو التأثير بالشروط المجتمعية ويعتبرون ما وصلوا إليه منسحبا على العلم الاجتماعي المتخفف بفعل الرؤى النقدية المتواصلة من إدعاء العلمية المطلقة والموضوعية الكاملة.

¹ محمد وقيدي، الإبستمولوجيا التكوينية للعلوم عند جان بياجي، المصدر السابق، ص 270.

2- عائق الأيديولوجيا للعلوم الإنسانية من وجهة نظر محمد وقيدي

وفي سياق بداية توجّهه نحو الإبستمولوجيا، كتب وقيدي كان هنالك كتاب آخر اطلّعت عليه، وهو كتاب "الفكر العلمي الجديد" لـ غاستون باشلار، وكان هذا قبل أن يقع اختياري على باشلار كموضوع لبحثي الجامعي الذي أنجزته لاحقاً. يتابع "لقد شدّني في هذا الكتاب جزؤه الذي يتحدّث عن الحتمية واللاحتمية، فاكشفت باشلار ووجهة نظره في الفكر العلمي الجديد وكيف تطرح فيه مسألة الحتمية. وقد أفادني ذلك كثيراً في مسار التعرّف إلى الإبستمولوجيا وتبنّي أفكارها."

علاقة وقيدي بباشلار لم تتوقّف عند هذا الاكتشاف المبكر لأفكاره فقط، بل ستستمر علاقته به سنوات أخرى تالية قائلاً: "ينبغي أن أشير إلى أن اختياري للإبستمولوجيا قد عبّر عن نفسه بشكل واضح منذ أن اخترت باشلار موضوعاً لبحث الدراسات العليا. فقد كان باشلار واحداً من الإبستمولوجيين الذين يمكن دراستهم، ولهذا اخترته. إذن فهو اختيار داخل اختيار¹."

تطبيق مبادئ الإبستمولوجيا بدأ مبكراً في مسار محمد وقيدي حيث شهدت سنوات التحاقه بالتدريس في الجامعة المغربية رؤية تجديدية في طرق تدريس الفلسفة. يقول: "عندما اخترت الإبستمولوجيا بدأت بالعمل على الإبستمولوجيا التطبيقية. فمذ أن دخلت الجامعة لتدريس الفكر اليوناني القديم، بدأت منذ أول محاضرة في تطبيق الإبستمولوجيا، فقلت بالقطيعة بين الفكر اليوناني والفكر الأسطوري، حيث أصبح الفلاسفة يفكّرون كأفراد، بعد ما كان الفكر الأسطوري هو المسيطر قبل ذلك، وهذا ما اعتبرته قطيعة أبستمولوجيا. وأثناء ذلك كان الطلبة يدركون أنهم لا يدرسون الفكر اليوناني فقط، ولكن يدرسون الفكر اليوناني انطلاقاً من وجهة نظر معينة ومفاهيم معينة أهمّها "القطيعة الإبستمولوجية" و"العائق الإبستمولوجي" كان هذا بداية من سنة 1975. هذا يعني أنني كنت أدرّس الفلسفة بالمنهج الباشلاري."

¹ محمد وقيدي.. في عوائق التفكير ورهاناتها، على الموقع <https://www.alaraby.co.uk/>

التفاعل مع باشلار لم يكن فقط على مستوى التأثير، بل إن وقيدي ظهر في كتابه "فلسفة المعرفة عند باشلار" (1980) ناقداً للفيلسوف الفرنسي. يشرح صاحب "بناء النظرية الفلسفية" تفاصيل هذه المرحلة قائلاً: "بعد كتابي عن باشلار، بدأت أفكر مباشرة في موضوع يليق بدراسات أخرى ففكرت في العلوم الإنسانية، لأنني أردت أن أدرس العلوم الإنسانية في العالم العربي، وقمت بالكثير من الأبحاث التي تضمنها كتابي "العلوم الإنسانية والأيديولوجيا" حيث أدركت أن العائق الأساسي للعلوم الإنسانية هو الأيديولوجيا."

3- العلوم الإنسانية بين الاعتراض على قيامها والاعتراف بصعوباتها

من بين ما يميز العلوم الإنسانية اليوم أن علميتها لا زالت موضع نقد خارجي وداخلي على السواء، فهناك، من جهة أولى، الاعتراضات التي تعترض بها فلسفات كثيرة على إمكان قيام دراسة علمية بالإنسان. وهناك، من جهة ثانية، التساؤلات التي يضعها المشتغلون بالعلوم الإنسانية حول ممارستهم العلمية وحول القيمة العلمية للمناهج المستخدمة في هذه العلوم. لذلك فإن دراسة هذه الاعتراضات، وتتبع صيغها وتطوراتها، سيساعدنا على تكوين نظرة عن الواقع الحالي للعلوم الإنسانية، وعن المستوى الذي بلغته الإبستمولوجيا الخاصة بهذه العلوم و عن اتجاهاتها.

يمكن في نظرنا أن نميز، ضمن مجموع الاعتراضات القائمة، بين مستويين. فهناك الاعتراضات التي قامت ضداً على العلوم الإنسانية منذ البدايات الأولى لنشأتها، والتي أصبح بعضها بفعل العض التقدم الحاصل متجاوزة. وهناك صيغ جديدة للاعتراض لا تزال سائدة حتى الآن.¹

ومن وجهة نظر الموضوع والمنهج نستطيع أن تؤكد أن النقد الموجه ضداً على علمية الدراسات الإنسانية لا يتعلق بمنهج الدراسة وحده، بل يشمل موضوع هذه الدراسة أيضاً فالعلوم الإنسانية لم تكن تنتظر من أجل قيامها مجرد انطباق المنهج حادث على موضوع جاهز سلفاً، بل إن الموضوع ذاته كان من اللازم بناؤه بناءً علمياً بصورة يكون بها قائلاً لأن يكون موضوع لمعرفة علمية. وهذا فضلاً عن أن الاعتراض على قيام العلوم

¹ محمد وقيدي، الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية، المصدر السابق، ص 130 ومابعداها

الإنسانية بموضوعها اعتراض عليها من حيث الأساس، فحين لا يكون الموضوع قابلاً للدراسة العلمية، فلا فائدة عندئذ من اصطناع أدق المناهج.

سنحاول أن نلخص أهم الاعتراضات التي وجهت ضداً على العلوم الإنسانية، منطلقين في عرضنا من الاعتراضات المتعلقة بالموضوع إلى الاعتراضات المتعلقة بالمنهج

1 - الموضوع المتعالي

تهدف كل الاعتراضات الموجهة إلى طبيعة موضوع العلوم الإنسانية إلى أن تبين أن هذا الموضوع متعال على المعرفة العلمية، وهذا الطبيعة هذا الموضوع، من جهة أولى، ولقصور الوسائل المستخدمة لبلوغه عن بلوغ حقيقته من جهة ثانية، والاعتراضات التي تعترض على المعرفة العلمية بصدد الإنسان بتعالي موضوعها عليها تصاغ بكيفيات مختلفة.

أ- لا بد من الإشارة أولاً إلى أن نقدم المنهج التجريبي في العلوم الفيزيائية قد كان بالنسبة للعلوم الإنسانية، مصدرة لنموذج منهجي يمكن أن تفيد منه هذه العلوم من حيث تحديدها لطرقها المنهجية ووسائل تطبيقها. إلا أنه كان من جهة أخرى مصدراً لصياغة الاعتراضات المختلفة. وهكذا وبالقيام إلى العلوم الفيزيائية فإن التساؤل العام حول الموضوع يمكن أن يتخذ الصيغة التالية: إن لم يكن الموضوع في العلوم الإنسانية هو من نفس طبيعة الموضوع في العلوم الفيزيائية فمن الواضح أنه سيصبح من الضروري أن نتساءل عما تعنيه صفة العلمية بالنسبة للعلوم الإنسانية؟¹

من البين أن سؤالاً مثل هذا ينطلق من اعتبار الأسس التي تقوم عليها العلوم في العلوم الفيزيائية كما لو كانت نموذجاً و معياراً ينبغي أن تقام عليه وبه العلوم الإنسانية. فالموضوع في العلوم الإنسانية ينبغي أن يكون من نفس طبيعة الموضوع في العلوم الفيزيائية.

إننا نريد أن نشرك هذا الاعتبار جانباً في هذه الحدود من بحثنا، كما نريد أن تمضي مع هذا الاعتبار في نفس منطقته، فما هي الخصائص التي تحدد طبيعة الموضوع في العلوم

¹ محمد وقيدي، الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية، المصدر السابق، ص 130 ومابعداها

الفيزيائية والتي يبدو أن عدم تحققها هو الذي يدل على عدم علمية الدراسات المتعلقة بالإنسان؟

أولى هذه الخصائص في نظر المعترضين هي أن الموضوع المدروس ينبغي أن يكون مطابقة للموضوعات المتماثلة معه، بحيث يمكن أن نستعيز عن موضوعنا بموضوع آخر مثيل له. ويمكن أن تعود إلى العلوم الفيزيائية لكي نقدم مثالا عن هذه القضية، إن الفيزياء تدرس، ضمن دراستها للجاذبية، مسألة سقوط الأجسام، ومن هذه الناحية فإن كل الأجسام المادية متماثلة. قطعة الرصاص والإنسان قد يعتبران حقيقتين مختلفتين كل الاختلاف، ولكنهما من وجهة نظر الفيزياء جسمان يمكن أن يخضعا لنفس قانون السقوط، وهي تهتم بهما معا من هذه الناحية، فهي في تجربة السقوط يمكن أن تستعيز عن أي واحد منهما بالآخر. إن العلوم الفيزيائية، إذن، تفترض وجود المطابقة في الواقع بين الأجسام المادية التي تتوفر على خصائص مادية متماثلة.¹

2 - المنهج المستحيل

ما هي النتيجة العملية لكل الاعتراضات السابقة على موضوع العلوم الإنسانية وللقول بأنه غير قابل لأن يكون موضوعا لمعرفة علمية؟ إنها القول بأن كل جهد منهجي لدراسة هذا الموضوع سيكون محاولة من باب المستحيل، لأنه سيكون محاولة لتطبيق خطوات المنهج حيث لا يمكن أن يطبق.

هناك اعتراضات متعددة على تطبيق المنهج العلمي في العلوم الإنسانية توافق تلك التي سلف لنا ذكرها بصدد موضوع هذه العلوم

أ- حين يطبق الباحث المنهج العلمي في دراسة الموضوعات المختلفة، فإن التطبيق المنهج يكون على موضوع خارجي مستقل عن الباحث. وهذا هو الطريق الذي يضمن الموضوعية في العلوم الفلكية والفيزيائية والكيميائية. أما في العلوم الإنسانية فإن المنهج العلمي ينطبق على الإنسان ذاته، أي أن الإنسان في هذه الحالة يكون ممارسة للمنهج العلمي وموضوعه له في الوقت ذاته، ويبدو هذا الاعتراض في صورته الأقوى بصدد علم النفس، وخاصة حين يريد هذا العلم أن يطبق في دراسته لموضوعه منهج التأمل الذاتي. لا شك في أن الذات

¹ محمد وقيدي، الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية، المصدر السابق، ص 130 ومابعدا

تلعب دائما دورة أساسية في المعرفة، إلى الحد الذي يمكن لنا معه القول بأنه لا يمكن تحصيل أية معرفة موضوعية دون تدخل من الذات. ولكن المشكل في التأمل الذاتي كمنهج هو هذا التداخل الذي يقع بين ممارسة المنهج وموضوعه، فهو الحائل دون تحصيل المعرفة الموضوعية.

لن نكرر هنا بتفصيل الاعتراضات التي وجهت ضدا على منهج الاستبطان، ونكتفي بذكرها في صيغها العامة.

فأولا إن منهج التأمل الذاتي غير قادر على إدراك الظاهرة النفسية في كليتها، وذلك لأنه يقتصر على إدراك لحظي للحياة النفسية ينصب من الشعور على بعض مظاهره التي تحدث لحظة القيام بالتأمل الذاتي.

وثانيا إن هذا المنهج لا يمكن أن يكون منهجا موضوعيا يتيح لكل ملاحظ بأن يستخلص من التعبيرات المعطاة الحالة النفسية الموافقة لها.¹

وثالثا إن هذا المنهج لا يستطيع ملاحظة الظواهر النفسية كما هي لحظة حدوثها، لأن اتخاذ صفة الملاحظ إزاء تلك الحالات يؤدي إلى التأثير فيها بالتخفيف من حدتها أو بارتفاعها

ورابعا إن اللجوء إلى التذكر بعد فوات الحالات النفسية التي تود دراستها أمر غير كاف، لما قد يتصف به التذكر من إغفال لبعض عناصر الحالة النفسية موقع الدراسة.

وخامسا إن هذا المنهج غير شامل لأنه يحصر مجال العلم في دراسة الظواهر الإنسانية عند الحدود التي تكون فيها تلك الظواهر متعلقة بالأناء، ولا يتجاوز ذلك إلى دراستها عندما تكون متعلقة بالغير، وخاصة إذا كان هذا الغير غير قادر على ممارسة التأمل الذاتي في حياته النفسية كالطفل والمريض النفسي.

وأخيرا فإن الاعتراض على منهج التأمل الباطني لا يصدر دائما من خارج علم النفس، بل إنه قد صدر عن تطور علم النفس ذاته، وذلك حين أصبحت فرضية وجود حياة لا شعورية فرضية مقبولة في هذا العلم، إذ معنى ذلك أنه مهما تكن قدرة الملاحظ الذي

¹ محمد وقيدي، الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية، المصدر السابق، ص 130 ومابعداها

يمارس التأمل الذاتي فإنه لن يستطيع ملاحظة جميع العناصر المؤثرة في الظاهرة والمكونة لها لأنها تفلت من مجال الشعور الذي يعتمد التأمل الذاتي.

كل هذه الاعتراضات تبين إذن أن علم النفس الذي يعتمد التأمل الذاتي مشروع مستحيل الإنجاز، أو بتعبير آخر أنه يمكن أن يكون ولكن دون أن يرقى إلى مستوى كونه علما بالمعنى التام للعبارة. وهذه الاعتراضات التي ذكرناها ضدا على منهج التأمل الذاتي إن لم تكن تجعل العلم بالظواهر الإنسانية مستحيلا، فهي على الأقل تجعله غير ممكن عندما يحصر نفسه في الظواهر المتعلقة بالأنا في حالة كونه خميرة للمتكلم، ليندفع به إلى أن يحاول تحقيق نفسه كعلم بظواهر الأنا المتعلقة بالغير، أي بتطبيق مناهج الملاحظة الخارجية. غير أن هذا لا يعني أن الاعتراض على إمكان قيام العلوم الإنسانية لا يشمل هذه المناهج ذاتها. وسنرى هذه الاعتراضات في فقرات لاحقة.

اب - ولكن الاعتراض على العلوم الإنسانية باستحالة اعتمادها على منهج التأمل الذاتي لا يقتصر على علم النفس. وهذا الاعتراض ذاته قد يظهر لا على مستوى تفكير الفرد في ذاته كفرد، بل على مستوى تفكير الإنسان في ذاته على مستوى الجماعة، وهو الأمر الذي تهتم به كل العلوم الاجتماعية بما فيها علم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد، ويتعلق الأمر هنا بعلاقات العلوم الإنسانية بالتيارات الفلسفية الكبرى، ثم عبر ذلك بعلاقات التيارات الفلسفية بالمواقف الإيديولوجية المختلفة التي قد تتواجد تواجد صراعي في مجتمع واحد بعينه أو في فترة تاريخية محددة. إن ما تؤدي إليه هذه العلاقات هو استحالة تطبيق المنهج العلمي. فالأنا في هذه الحالة أيضا توجد على حالة الازدواج بين كونها مصدر المنهج العلمي وموضوعه في آن واحد، فالباحث جزء من الظاهرة التي يدرسها، وهو لا يخلو من موقف عام من المجتمع الذي يعمل على دراسته.¹

فعلى مستوى الجماعة، وهو الأمر الذي تهتم به كل العلوم الاجتماعية بما فيها علم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد، ويتعلق الأمر هنا بعلاقات العلوم الإنسانية بالتيارات الفلسفية الكبرى، ثم عبر ذلك بعلاقات التيارات الفلسفية بالمواقف الإيديولوجية المختلفة التي قد تتواجد تواجدا صراعيا في مجتمع واحد بعينه أو في فترة تاريخية محددة. إن ما تؤدي إليه

¹ محمد وقيدي، الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية، المصدر السابق، ص 130 وما بعدها

هذه العلاقات هو استحالة تطبيق المنهج العلمي. فالأنا في هذه الحالة أيضا توجد على حالة الازدواج بين كونها مصدر المنهج العلمي وموضوعه في آن واحد. فالباحث جزء من الظاهرة التي يدرسها، وهو لا يخلو من موقف عام من المجتمع الذي يعمل على دراسته.

إن نتيجة هذه العلاقة التي تربط العلوم الإنسانية بالنتابات الفلسفية والأيديولوجية القائمة تنعكس على صورة المعرفة في هذه العلوم. وهكذا ينعدم في العلوم الإنسانية شرط من الشروط التي يقوم عليها العلم في كل ميدان، وهو حصول اتفاق بين المشتغلين في نفس الميدان حول تحديد موضوع دراستهم ومناهج بحثهم ومصطلحاتهم الأساسية، فما يميز العلوم الإنسانية على العكس من ذلك هو الاختلاف، بينما نجد أن النظريات العلمية في العلوم الأخرى تتضاف إلى ما هو قائم فنكمله أو تلغيه بإثبات بطلانه، فإن النظريات في العلوم الإنسانية تتضاف إلى ما هو قائم من نظريات لتكون معه في حالة تواجد فد يتميز بالتعارض، فمن نتائج خضوع العلوم الإنسانية للتيارات الفلسفية والأيديولوجية الكبرى أننا يمكن أن نجد لظاهرة إنسانية واحدة تحليلات متباينة من حيث وجهات النظر التي تنطلق منها، فهل تتقدم لفهم واقع مجتمعي معين من وجهة النظر التي تقترحها علينا النزعات الاختبارية، أم تنطلق من وجهة النظر التي تقترحها علينا الفلسفة الجدلية أم ننطلق من وجهة نظر فينومولوجية؟ لا شك في أن النتائج التي نصل إليها ستكون متباينة بتباين وجهات النظر التي ذكرناها. فالنتائج لا تتضاف إلى بعضها في صورة تكامل، بل تتراكم في صورة تواجد سمته التضاد. وهذا التعارض بين النظريات ينعكس على مستوى آخر هو مستوى المفاهيم، فتجد أن المفهوم الواحد قد يستخدم بأكثر من دلالة إذا ما كان استخدامه موزع بين نظريات مختلفة.¹

¹ محمد وقيدي، الأيديولوجيا والعلوم الإنسانية، المصدر السابق، ص 130 ومابعدا



الخاتمة



في الأخير يمكن القول أننا حاولنا من خلال هذا العمل المتواضع من تسليط الضوء على علاقة الأيديولوجية بالعلوم الإنسانية وذلك وفق تصور المفكر المغربي محمد وقيدي الذي يعتبر هذا الموضوع جزءا من اهتمامه العلمية والتي تصب معظمها في مجال الابدستمولوجيا، ومن خلال ما تقدم عرضه وتحليله في الفصول الثلاث من بحثنا يمكن الخلوصل الى مجموعة من النتائج نذكر منها:

1- تكتسي الابدستمولوجيا أهمية بالغة ولها دور فعال في تطوير العلوم وبنيتها خاصة انها تمثل منظومة من الأفكار والآراء التي يتم اعتناقها كمذهب فكري، لذلك تعتبر الأيديولوجيا عامل مهم من عوامل تنشئة وتطور العلوم بمختلف فروعها التجريبية والإنسانية.

2- عرفت العلوم الإنسانية تغيرا كبيرا منذ نشأتها في أواخر القرن 19 وبداية القرن 20 وطراً الكثير من التطور على مستوى بنيتها وخاصة علم النفس وعلم الاجتماع، وهذه العلوم تعني بدراسة الانسان سواء تعلق الامر بالأحداث الماضية التي مر عليها والتراكمات التاريخية الى جانب سلوكاته المختلفة والظواهر الاجتماعية التي تسود في بيئة معينة.

3- تأثر محمد وقيدي بفلسفة بفلسفة غاستون باشلار حيث اطلق عليه " غاستون باشلار العرب" واستقى العديد من المصطلحات البشلاوية ووظفها في أفكاره خاصة فكرة القطيعة الابدستمولوجية التي تنفي الاستمرارية بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية، هذا دون أن ننسى كذلك العوائق الابدستمولوجية وهي مجموعة من العقبات المعرفية التي تحول دون تحقيق الموضوعية في الدراسة العلمية ومنها عوائق ذاتية وأخرى موضوعية .

4- اهتم وقيدي بدراسة العلوم الإنسانية وتوضيح منهجها الذي يختلف باختلاف الميدان المدروس لذلك كثيرا ما تفتقر للدقة والموضوعية .

5- العلوم الإنسانية في نظر وقيدي تبقى نسبة فهي كثيرة المناهج قليلة النتائج، وقد أخضعها وقيدي للعوائق الابدستمولوجية التي طبقها سابقا باشلار على العلوم التجريبية، فيكون بذلك وقيدي من أوائل المفكرين الذين اهتموا بدراسة وتحليل العلوم الإنسانية من حيث

نشأتها ومنهجها ونقد نتائجها وفق منهجية غاستون باشلار التي تمتاز بالدقة والعمق الى جانب الموضوعية والتحلي بالروح العلمية.

6- اهتم وقيدي بالمشكلات الابستمولوجية التي ظهرت في العلوم الإنسانية خاصة علم الاجتماع، باعتبار ان هذا العلم يعالج مشكلات الانسان والمسائل المتعلقة بالحياة المعيشية وما تقتضيه من حلول عملية لبعض الظاهر التي استفحلت في المجتمع، وأصبحت لها اثار وتداعيات خطيرة باعتبار ان الكثير من الظواهر في نظر وقيدي لها خلفية أيديولوجية، كقضايا الإرهاب، وتحرر المرأة، الى جانب مسائل أخرى تكتسي أهمية بالغة في المجتمعات المعاصرة على اختلاف توجهاتها ومشاريها، عقائدها واديولوجيتها.

7- ركز وقيدي على علاقة الأيديولوجية بالعلوم الإنسانية واكد أن التوجهات الأيديولوجية كثيرا ما تؤثر على العلوم الإنسانية وهذا ما يفسر اختلاف القراءات للظاهرة الإنسانية الواحدة من طرف الدارسين والباحثين، وقد يصل هذا الاختلاف الى درجة التناقض وعليه تعتبر الايديولوجية أكبر عائق في وجه العلوم الإنسانية.

نتمنى ان يكون بحثنا المتواضع في المستوى كما يكون إضافة حسنة لسلسلة البحوث في مجال الفلسفة، ونرجو أن يهتم طلبتنا أكثر بميدان فلسفة العلوم وقضايا الابستمولوجيا لأنها تمثل روح فلسفة العصر وتثبت التكامل بين المجال العلمي والمجال الفلسفي.



قائمة المصادر

والمراجع



أولاً: المصادر

- 1- محمد وقيدي، بناء النظرية الفلسفية (دراسات في الفلسفة العربية المعاصرة)، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1990،
- 2- محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والايديولوجيا، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لط1، 1983.
- 3- محمد وقيدي ، العلوم الإنسانية بين التصنيف النظري و النظام التربوي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية،
- 4- محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والأيديولوجيا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011.
- 5- محمد وقيدي، الإستيمولوجيا التكوينية للعلوم عند جان بياجي، دار البيضاء بالمغرب، 2007

ثانياً: المراجع

1-الكتب

- 2- أنتوني جينز، "مقدمة نقدية في علم الاجتماع"، ترجمة أحمد زايد وآخرون"، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2002
- 3- الأيديولوجيا، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، 2006م،
- 4- أيوب، سمير .تأثيرات الأيديولوجيا في علم الاجتماع .بيروت :معهد الإنماء العربي، 1983،
- 5- بدوي عبد الفتاح محمد ،فلسفة العلوم، العلم ومستقبل الإنسان إلى أين، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، دط،. 2007
- 6- بعلبكي، منير، قاموس المورد، صدر عن دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. 1967،

- 7- بول موى، ترجمة فؤاد حسن زكرياء، المنطق وفلسفة العلوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية
- 8- جان بياجيه، ترجمة السيد نقا، الاستمولوجيا التكوينية، دار التكوين، 2004.
- 9- جميل صليبا، المعجم الفلسفي ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، 1982
- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع القاهرة، دط، 2007،
- 10- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي (الطبعة الثامنة)، القاهرة: دار المعارف، القاهرة، 1964
- 11- ديفيد هوكس، "الأيدولوجيا"، ترجمة إبراهيم فتحي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000
- 12- دينكين ميتشيل، "معجم علم الاجتماع"، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، 1981
- 13- رشيد مسعود، الأيدولوجيا علم الأفكار، الموسوعة الفلسفية العربية، مجلد الأول، معهد الانماء العربي، بيروت،
- 14- زاوي يغورة، مدخل إلى فلسفة العلوم، جامعة منتوري قسنطينة، دل، دس
- 15- سالم يفوت: المناحي الجديدة في الفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1999.
- 16- السيد الحسيني، "مفاهيم علم الاجتماع"، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ط2، 1987.
- 17- عبد الله العروي: مفهوم الأيدولوجيا، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1983م
- 18- عبد الله العروي، مفهوم الأيدولوجيا.. الأدلوجة، دار الفارابي للنشر والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1980
- 19- عبد الهادي والي، "التنمية الاجتماعية (مدخل لدراسة المفاهيم الأساسية)"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1983
- 20- عمر التاور، منزلة العلوم الإنسانية المركز التربوي الجهوي،

- 21- كارل مانهايم ، الأيديولوجيا اليوتوبيا ، مقدمة سيوسولوجية في المعرفة ، تر: الدكتور محمد رجا ء الديريني، شركة المكتبات الكويتية، 1970
- 22- لوسيان غولدمان، ترجمة يوسف الأنطكي، العلوم الإنسانية والفلسفية، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، السنة 1996،
- 23- محمد تقي مصباح اليزدي: الأيديولوجية المقارنة، ترجمة: عبد المنعم الخاقاني، دار المحجة البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1992م
- 24- محمد سبيلا: الأيديولوجيا نحو نظرة تكاملية، الدار البيضاء، المركز الثقافي الغربي، الطبعة الأولى، 1992،
- 25- محمد علي محمد، "أصول الاجتماع السياسي"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1980
- 26- محمد هشام، تكوين مفهوم الممارسة الاستمول وجية عند باشلار، إفريقيا الشرق - المغرب، دط، 2006
- 27- محمد هشام، تكوين مفهوم الممارسة الاستمولوجية عند باشلار، إفريقيا الشرق - المغرب ، دط، 2006،
- 28- ناصيف نصّار: الأيديولوجية على المحك - فصول جديدة في تحليل الأيديولوجية ونقدها، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م
- 29- نجاه محاسيس، مفا تيح علم التاريخ ، ط1، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان-الأردن: 2010 ،
- 30- ه.ب. ريكمان: منهج جديد للدراسات الإنسانية، محاولة فلسفية، ترجمة علي عبد المعطي و محمد علي محمد مكتبة مكابي، بيروت . لبنان، ط1، 1979،
- 31- هنري ايكن، ترجمة فؤاد زكرياء، عصر الأيديولوجية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963،
- 32- يورغن هابرماس : التقنية والعلم كإيديولوجيا، ترجمة حسن صقر، منشورات الجمل الطبعة الأولى، كولونيا ألمانيا، 2003.

المذكرات

عبد الله عبد الوهاب محمد الأنصاري: الأيديولوجيا والبيوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة، رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية،
عماري جميلة ، جهود محمد وقيدى الاستمولوجية، مذكرة لنيل شهادة الماستر ، جامعة
عمار تليجي ، 2018-2019
عباد خالد عبد يحيى ، مساهمة في نقد الانشغال العربي بثنائية "المعرفي/الأيديولوجي":
الحالة الفلسطينية مثلاً، برنامج الماجستير في علم الاجتماع، جامعة بيرزت ، 2013

المجلات

خيرة بورنان: اتجاهات ومناهج البحث في العلوم الإنسانية، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية،
العدد 30 مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار الجزائر، 2013
المراجع الأجنبية :

Michelle Foucault, les mots et les choses, éditions Gallimard, paris,
1966,

مواقع الانترنت :

مالك ابوعليا ، الأيديولوجيا والوهم، مقال منشور على موقع الحوار المتمدن:
<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=493023>

عزالدين بوركعة ، صراع الأيديولوجيا بين الحقيقة والوهم متاح على الموقع
<https://mana.net/10148>

عبد الكريم بلحاج، وقفة مع وقيدى حول مشروعه الفكري بين الاستمولوجيا والسيكولوجيا
التكوينية ، علم النفس، الرباط، المغرب

www.arabpsynet.com/documents/docbelhah

ملتقى اختفاء المحمدية، بالفكر محمد وقيدي، 20 يناير 2015،
Assabah.ma/78598.html

عبد الكريم بالحاج، وقفة مع وقيدي حول مشروعه الفكري بين الاستمولوجيا
والسيكولوجيا التكوينية، علم www.arabpsynet.com/documents/docbeihah
النفس ، الرابط المغرب

سليمان الحقيوي، أداب وأفكار - الرابط في بورتريه لأنس عوض (العربي الجديد)، محمد
<https://www.alaraby.co.uk> وقيدي، في عوائق

<https://web.archive.org/web/20200807132521/https://2m.ma/ar/news/20200807-المفكر-المغربي-محمد-وقيدي-يرحل-إلى-دار-البقاء-s/20200807>
محمد وقيدي.. في عوائق التفكير ورهاناتها، على الموقع
<https://www.alaraby.co.uk/>